إلى القارئ

ان النهضة الثقافية المرتقبة التى يسعى اليها جميع المخلصين فى هذه البلاد والتى يمهد لها انتشار التعليم طبعا لا بد من مؤسسة قائمة بنفسها ، متمتعة بجانب كبير من حرية التصرف والعمل ، لوضع أسسها وتحديد معالمها وتوفير الاسباب المعنوية والمادية للخروج بها من حيز الامكان والقوة الى حيز الواقع والفعل ٠

واذا كان بعث الثقافة امرا تفرضه حرمة الثقافة نفسها ومقتضياتها لما يشعر به كل مثقف أصيل من حاجة الى توسيع آفاقه واثراء تجربته وتنمية مداركه الادبية والعلمية والفنية ومن حنين الى الكتاب القيم وتأثر باللوحة الزيتية الرائعة ، وتفاعل مع المسرحية او الشريط السينمائى المعالج لوضع الانسان بحال من الاحوال وميل الى الاثر الموسيقى المحرك للوجدان ، اذا كان بعث الثقافة سعى المثقفين انفسهم من حيث هم ، فان للثقافة وظيفة اخرى فى نطاق الامة ، خاصة اذا كانت ناقصة التطور ٠

ذلك انه اذا صح ان تخلف الامم الاقتصادى والاجتماعى انما مرده التخلف الفكرى فان من واجبنا ان نجعل الثقافة اداة لرفع مستوى المواطن التونسى وتمكينه من ممارسة الديمقراطية بالاطلاع والنظر فى شؤون البلاد والعالم وحتى يكون مواطنا واعيا يعمل عن روية وتمييز ، فنبسطها ونيسرها ونجعلها فى متناول جميع افراد الشعب وخاصة المواطنين الذين حرمهم الاستعمار من نور العرفان، وذلك بالاكثار من النشريات ، والاسطوانات ، الميسرة ـ اخراجا وثمنا ـ وبالعمل الاذاعى البليغ التأثير وبانشاء النوادى وحمل المثقفين على التضحية بشىء من اوقاتهم لالقاء المحاضرات والاشراف على الندوات والمناقشات لا فى تونس العاصمة فحسب بل فى كافة انحاء الجمهورية وكذلك بناء المسارح ودور السنيما وتشجيع الفرق الموسيقية والتمثيلية ٠

وناحية اخرى يجدر الا تغيب عن تفكيرنا وهى ان الثقافة يجب ان تكون اداة تسلية وترويض بالنسبة للشباب ، المثقف وغير المثقف ، حتى ينشغل بها ويفلت من الفراغ المميت ٠ يجب ان يجد الشباب ، وهو الاغلبية فى هذه البلاد وهو المستقبل، كلما غادر مدرسته او شغله، النادى او الملتقى او الملعب او المسبح حيث يلعب ويتعلم ويتثقف و« يؤثث » فراغه ـ ان صح التعبير ـ عوض ان يجوب الشوارع او يتردد على المقاهى والحانات والمراقص ، تلك بعض مظاهر للثقافة ودورها فى حياة البلاد نأمل ان نكون اتممنا بها ما ورد فى افتتاحياتنا السابقة حول هذا الموضوع ٠

الفكر

بين الشرق والغرب

بقلم : فرحات الدشراوى

لو أحصيت ما كتب باللغة العربية فى هذا الموضوع قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها لتعذر عليك الاحصاء كثرة ولعجبت لالحاح الكتاب بالاقطار العربية الاسلامية فى هذا الغرض دفاعا عن الشرق وانتصارا له وسخطا فى وجه الغرب وثورة عليه ٠

ولقد عنى اذاك « بالشرق » عامة تلك الممالك العربية الاسلامية من اقاصى بلاد فارس الى اطراف ارض مراكش وخاصة بلاد الشرق الادنى والاوسط ممالك ضعف شأنها وهان امرها مريضة لا قوة لها ولا حول ٠

ولقد عنى اذاك « بالغرب » عامة اقطار أوربا وخاصة فرنسا وانقلترا اقطار عظم شأنها وعلا امرها قوية لها صولة وشدة بأس ٠

ولطالما احتد الصراع اذاك بين ذاك الشرق وذاك الغرب صراع بين عالم أفل نجمه بعد اجيال من نور المدنية غزار ونزل به ظلام الجهل ويبس فيه الفكر وكاد يموت وعالم اشرقت آفاقه اثر نهضة علمية وصناعية عميقة اينعت ثمارها فازدهرت به الحضارة ونشط الفكر وانتشرت المعرفة وقامت سوق العلم ٠

وتجمدت صور هذا الصراع بين الشرق والغرب تجمدا فى نفوس كتاب العربية واتحدت فى قرائحهم فصارت صورة واحدة متماثلة الملامح متشابهة الالوان صورة قاتمة مرة قتامة القلب الحزين ومرارة المعذب يقاسى ٠ واحتد اذاك النزاع ـ فى مقالاتهم ومؤلفاتهم ـ بين الشرق والغرب بين عالم مغلوب ذليل وعالم عات جبار نزاع بين رجاء الضعيف وصبره وقوة الروح وغزارة الايمان وبين هيمنة القوى وبطشه وقوة المادة وحب القهر والتفوق ٠

ولطالما هزت الشرق الذليل اذاك ـ فى كتبهم ـ عصفات الاباء تصبو به الى الكرامة المنشودة والعز الضائع ، ولطالما لعبت برأس الغرب المنتصر اذاك نشوة الظفر والغلب تدعوه الى التبجح بفضل مدنيته والمباهاة بازدهار مجتمعه وتقدم حياته ٠ ولكم كتب كتاب العربية فى هذا الغرض والفوا ولكم لهجوا

الا ان هذه الحرب العالمية الاخيرة كانما غيرت مفهوم الشرق والغرب واحدثت فى القيم تحولا جدد الموضوع تجديدا ووضع المشاكل وضعا آخر طريفا • فاليوم الصراع قائم بين « الشرق والغرب » والحرب « الباردة » بينهما ضروس حامية النار الا انه يعنى « بالشرق » لا العالم العربى الاسلامى بل شرق اوربا بلاد روسيا السوفياتية وما التف حولها من دول دانت مثلها بالمذهبية الشيوعية وتحزبت بحزبها ويعنى « بالغرب » لا اوربا الاستعمارية بل الولايات المتحدة وما التف حولها من دول غرب اوربا تمذهبت بمذهبيتها وتسمت معها «بالعالم الحر » •

ولكم احتد النزاع اليوم بينهذا الشرق وهذا الغرب لا قبللاحدهما بالآخر لما بلغا معا من هول القوة وخطر البأس فأصبحا فى القدرة على الغلب على حد السواء فاما ان يتعايشا واما ان يتلفا • واما الممالك العربية الاسلامية المستعمرة بالامس فقد صارت اليوم بعد فوزها باستقلالها من هذه الدول التى تدعى « متخلفة » يتجاذبها هذان العالمان فيستهوى بعضها العالم الشيوعى « بماركسيته » ومودته ومساعدته ويستهوى البعض الاخر « العالم الحر » « بحريته » ورؤوس امواله •

ويسير هذان التياران بالاقطار العربية الاسلامية مسيرا عسيرا قد اخذاها منذ سنين اخذا ورداها ردا حتى تضاربت بها الاتجاهات واشكلت فيها المواقف والتوت عليها المناهج واضطربت منها الاوضاع • ثم انها لتتخاصم ولتتهاجر حتى ليشتد بينها الشجار ويتمكن بينقادتها الجفاء حتى تحتار النفوس وتنزعج القلوب ثم لاتلبث السحب ان تجرى بها الرياح ويسترجع الجو صحوه وتنسى الشتائم وتتصافح ايدى الصفا والمودة وتبتسم شفاه الاخوة •

ولقد يندهش بعضهم لمثل هذا التصافى يعود سريعا ويذهبون فى تأويله المذاهب ولكن لا سحر فى ذلك ولا لون من الشعوذة وليس هو من باب المناورة ولا الدهاء • انما هذه الاقطار العربية الاسلامية وان توخت سبلا تتفاوت فى اللين والشدة واختارت مواقف متخالفة متناقضة لا بد لها ان تهدف الى هدف واحد مع تعارض سياستها وليس لها ان تسعى الا الى غاية واحدة مع تنوع

اساليبها الى تحقيق مواهبها وتوفير امكانيات نهضتها وتنمية وسائل تقدمها ٠

وانه لا فلاح للعالم العربى الاسلامى اليوم الا باخلاصه لنفسه ولا نجاة له اليوم بين القوتين المتصارعتين الا بالتمسك بذاته يتطور كما هو ليكون كما هو لا يمسخه ماسخ ولا يشوهه مشوه ٠

واننا فى بلادنا ـ هذا العضو من اعضاء العالم العـربى الاسلامى ـ نشعر شعورا حارا بما لنا من اركان شرقية هى دعامة كياننا واصول عريقة تغذينا بروحها وترضعنا درها ٠ كما اننا ندرك ادراكا حـادا حاجتنا الى التشبع من نور المدنية العصرية لا ناخذ منها الا ما يلائم مزاجنا وما يزينها من قيم انسانية خالدة وما يقتضيه تطور الحياة ٠

وقديما كانت ارضنا جسرا بين الحضارات ووعـاء تمخضت فيه تياراتهـا المتنوعة وأزبدت زبدة انسانية شهية فادت رسالتها البشرية اداء مذكورا ٠ فلا بد ان نوطد اليوم سعينا لتبقى سبيلنا واضحة متصلة المراحل بين ماضينا النير الحى ومصيرنا النير الحى ونظل عـلى عهدنا ثـابتين ولانفسنا مخلصين وبماهيتنا مؤمنين ومن رسالتنا واعين ٠

فرحات الدشراوى

مـــــــريد

بقلم : الدكتور علي شلق

لك روحي أيها الخمار أدلف لي كأسا
علني بعض شؤوني في حياتي أتناسى

اسقني واسق معي ثوبي وكفي والترابا
أنا من بدل بـالراح الندامى والصحابـا

أنـا وحدي عالم، مني سماري وعودي
الحبيبات، واحلامي، على الدهر جنودي

أنا سكـران وهـذا الليـل سكيـر قديم
السماوالارض والارياح سكرى والنجوم

آه لا تصح فدتك الروح لا تصح فتأسى
دع لي الحلم، دع الوهم، وخذ بدراوشما

أكره النور فغظ الفجر وأحجب كل كوكب
ودع الليل نجي الروح يسقيني فأشرب

وأغرقي يا أرض، في طاس من الراح عتيق
— أنت لي ياأرض

— لا.......
— أنت غبار في طـريقي

ارضك وتراثك

بقلم : البشير المجذوب

أجيال ثم أجيال... أجيال عدة اجتمعت على حب هذه الارض المكتهلة الفتية. ترى لو التقت هذه الاجيال... فهل تتعارف ؟ الا ينكر البعض منها البعض كما لوكانوا غرباء... نبت بهم ديار شتى . غرباء اجتمعوا في ليلة من ليالي النسيان حول مائدة خان مجهول...نفوس لم تنشط من عقالها . وجوه ترمق مترددة تساؤلا وحيرة.

« لو خرجت من جلدك لم اعرفك » اتكون قولة مروزى الجاحظ تلك لاخيه العراقي نصيبنا من بعضنا ؟

هل هذه الارض ليست الا اسما ، عنوانا لمساحة غفل تتبخر فيها انفاس الانسان وشيكا تبدد الغمامة الخلب عند الضحى الهازج . منازل نتعلل فيها بلمس التربة ولثم الاطلال نراود اخيلة ونضم سرابا.

أي سر في هذه الارض، أية روعة متجددة على الايام تصل بيننا وتشدنا اليها شدا، عن علم وغير علم منا، رضينا ذلك ام لم نرض.

هي اللغة ! اجل هذه اللغة النقية العذبة ولاعذوبة آبار بساتيننا ومنابع آكامنا. تترقرق في خفة الهيفاء الطروب. هذه اللغة بنكهتها انقلت : تمر « جريدنا» الوضاء وعنب روا بيننا النير تكون قد المعت عجزا وأبهمت تلميحا. الظرف ظرفها يعطيك شعلة الشعور ونبض الحياة خلاصة ثمرا جنيا. و يهدي اليك خصب الجمال متولدا ثرا طريفا . هذه اللغة في اكتنازها وضمورها تعارض نفس الفكر تعدو جياشة سباقة الى الغاية: تكر وتفر. تقبل وتدبر. ليس اصدق من فرس امرىء القيس رمزا لها مثالا في جمعه للمتناقضات تأليفا عجبا .هذه اللغة العنيد الصبور تواكب الاجيال اشبعت طاقة حياة كمثل الزيتون يحرقه القحط ويضنيه فلاينفك متشبثا بالتربة. تراه يتشنج اصله ويتقبض ويلتوي ولايريد فكاكا. لهو اشبه في عتوه بالحية جثمت على فريستها تمتص دمها لا تبقي منه ولا تذر. وتسألني لجوجا : « اي لغة تعني ؟ ما عسى هذه اللغة ان تكون ؟ » سواء عندي عربية الكتاب وعربية البيت والسوق. كلاهما عزيز الينا . وشائج بينهما وعرى لا تنفصم، لولاها لقطع بنا وكنا جماعة تيها.

هوعناق الام للبنت نريده حاراً سخيا.

هو وفاء البنت للام نريده بارا حفيا.

هي السليقة منغرزة فينا نبتا متأصلا لولاها ما شدونا من القرآن ولا ذقنا من روائع الاداب شيئا

هي نبرة الحرف العربي ترتج في نفوسنا فنسيغها ونثبتها شأن الصديق يأنس بحميمه ويغتبط بمرآه. نفسح لها صدورنا ونتسع اتساعا وكأننا نسقاها ريا طهورا. وهذا الدين الطماح الغيور لا يترك كبيرة ولا صغيرة الا لزمها. يقوم بين المرء ونفسه عينا رقيبا. قد توليه ظهرك عامة يومك وتعرض عنه وتجفوه غير انه يلاحقك الى عقر بيتك يتقاضاك الحساب. وقد تظن انك قد ازحته وفرغت من امره. هيهات ! لقد غذيته واشربته فلن يريم.

انه يخبر عنك بالرغم منك اذ ترسلها صيحة حمد مفعمة برا وارتياحا. وسموا واخلاصا. انه في طعامك وشرابك، في وحشتك وانسك، في حبك وبغضائك، في سكرك وصلاتك، في طهرك و دنسك وفي الهواء الـذي تتنفسه من حولك ماثلا معنى خفيا او طيفا نجيا. يلازمك حتى ساعتك الاخيرة يشرف عليها شاهدا حسيبا ارفضه ان شئت وتول عنه فلن يسلمك قياد نفسك ولن ياتمنك على خاص امرك.

الم تركيف تصور الفكر فاتخذ الصخر لبوسا. فكان اشراق هذه القباب البيض يحوم نظرك حولها ويطوف. وكانت هذه المآذن المنتصبة في الجو « اصلها ثابت وفرعها في السماء »... شرف يتصيد فيها الروح. ويلقى بذار الفكر منها لقاحا في مهب الرياح... هذه المآذن عشت في ظلها ودرجت في حماها. تطالعك في غدوك ورواحك. تناجيك تهيب بك في صبحك ومسائك. فهي الالف الممازج لم يبتذل وده. وهي الصديق الصديق لم تبل بشاشته. وانت لو تاملتها بعين قلبك و باطن حسك لرايت كيف يتجاوز الحجر حقيقته و يتسامى مترفعا عن طبيعته اذ يكتسي بشرا وقداسة وهيبة وظرافة.

وموسيقانا ! ونغماتنا ! اما تستخفك عذوبتها واصالتها؟ اما تستبد بك روعة الموشحات حتى ترى في بعضها الغاية لا غاية وراءها ؟

أشهد الله انني ما طربت يوما كطربي لنغمة « المحير سيكا » او « لنوبة الاصبعين » وقد بدت في تمام فخامتها ولطيف رونقها. تتهادى تارة تميس ميسا وتهفو طورا وثابة معربدة تكاد تحلق من السرور حتى تبلغ الاوج والذروة. اما ترى كيف قلصت اسفل السربال وقد نفضت عنها الحياء والوقار لا تلوى على شيء، فعربت وشفت وعلت وتلظت تهب وتعرج دائرة طوافة حتى ما تكاد تتبعها النفس فلقد ينهال عليك اللحن فتحسه ينغرز في جلدك فيقشعر له جسمك لذاذة وارتياحا وتجد فيه كحلاوة الحب يكتشف عرضا ينفحك بردا وسلاما ويغمرك انسا ورضوانا.

وتصغي الى بعض الاغاني الشعبية العتيقة فاذا انت في عهد خفي محبب اليك ، غريب على قربه منك كأنه طفولتك البعيدة قد انبعثت واستعادت بهجتها الاولى . فتنتفض شوقا وتهتز حنينا فأنت انت مبدع الاغنية بارئها تنتشي فيها برؤية ذاتك، تشهد فيها صورة من نفسك وتلمح بعضا من سرك . لحظات من اللذة المزدوجة كلها غنم تقضيها في حضرة نفسك ذاهلا عنها.

هذه هي ارضك وذاك هو تراثك لا ريب فيه. تلم به فيبدد عنك ثقل السنين كثافتها ويجوز بك ابعاد العصور على وحشتها وجفائها فاذا انت فكر طليق قدافلت من اسار الزمن ورق اللحظة. هؤلاء هم اسلافك لم تنحدر منهم قسرا ولم تقحم فيهم اقحاما فأنت منهم وكأنك اخترتهم لنفسك وارتضيتهم لك اخوانا.

البشيـــر المجدوب

قصة مثل : « اياك اعنى واسمعي ياجارة »

قالوا كان رجل من بنى فزارة يسمى سهل بن مالك ، وكان قد خرج فى بعض رحلاته فمر ببعض احياء طى فسأل عن سيد الحى ، فدلوه على حارثة بن لام فقصده فلم يجده فقالت له اخت حارثة : انزل على الرحب والسعة ، فنزل فأكرمته ولاطفته ، ثم خرجت من خبائها فراها اجمل اهل دارها واكملهم وكانت عقيلة قومها وسيدة نسائها فوقع فى نفسه منها شيء ، وحار كيف يرسل اليها ولم يدر مايوافقها فجلس بفناء الخباء يوما وهى تسمع كلامه وجعل ينشد قائلا :

يـا اخت خيـر البـدو والحضارة   كيف تـرين فى فـتى فـزاره
اصبـح يهـوى حـرة معطـاره   اياك اعنى واسمعى يـا جـاره

وسمعت المرأة قوله ، وعرفت انه اياها يعنى فقالت له :

« اقم ما أقمت مكرما ، ثم ارتحل متى شئت مسلما »

وغـــــرست

بقلم : الصادق مازيغ

لجليل قدرك تخضع الاقدار … وبفضل سعيك تلهج الاشعار
وبنبل طلعتك السنية تحتفى … هذى القلوب وتخفق الاوتار

يا سالكا نهج الفخار ، وباعثا … عهدا تولت رعيه الاحرار
ومشيدا صرح الفضائل شامخا … يضفى عليه من الوئام شعار
انت الذى وضع الاساس لسؤدد … وتجسمت بجهاده الاوطار
ان جبت أرجاء البلاد ترنحت … اعطافها ، وتفتق النوار
وغدت بأمرك قاحلات نجادها … خضرا ، لهن من النبات ازار
اكسيتهن مطارفا ، وحبيته … بهن عوارفا تلهو بها الانظار
وغرست بالكف السخية فى الحمى … شجرا سيورق غصنه الموار
يسدى الحياة الى الانام بنفحه … فاذا الهواء مروق معطار
ويصد غائلة السيول عن الثرى … فيقر للماء الشريد قرار
والظل ممدود ، يرف رواقه … اما تلظت للسمائم نار
وتظل ورق من حمام سجع … تأوى اليه اذا استبد أوار
وتظل مسدية اليك مدائحا … غرا تردد لحنها الامصار
وتقول « حيا الله أكرم سيد … لهجت به الفصحاء والاطيار »
والماء منبجس ، تحدر نبعه … بعد المحول ، وقد همت امطار
وتجدد الخصب القديم ، واقبلت … تجرى بعرض بلادنا الانهار..

افتلك خارقة الخوارق ، ام يد … لمجاهد نطقت بها الآثار ؟
هى سنة معلومة ، وسجية … عرفت لشهم دأبه الانشار :
هو باعث الامال من رمس البلى … ومنسق الاعمال وهى نثار

هو مانح الاوطان بهجة عيشها ... من بعد ان عبثت به الفجار
هو كوكب اليمن الذى يغزو الدجى ... وتبيت ترقب هديه السمار
هو ذلك الروح المشع نقاوة ... وتحمسا تعنو له الاقدار
هو ذلك العزم الوطيد ، وذلك ... الرأى السديد اذا ادلهم نهار
هو ذلك القلب الرؤوف على امرىء ... امسى يروع صدره الاعصار
هذا انا غرس لجود يمينه ... لولاه ما اشتملت على ديار
لولاه ما انتظم القريض بمهجتي ... عقدا تهيم بحسنه الاقمار
اوما غدوت لريب دهر ظالم ... غرضا ، وأمت ساحتى الاكدار
وجنيت من ثمر الجحود مضاضة ... وتندما شقيت به الابرار
حتى حنوت على الجريح برقة ... أبوية ، فانجل عنه اسار..
أحييتنى بعد الممات ، وجادنى ... من فيض يمنك وابل مدرار
وغرست فى جنبي اطيب دوحة ... فتهدلت ترنو لها الابصار
تسديك من غض الولاء يوانعا ... تهفو لها الآذان والافكار
لا زلت تغرس للمحامد أيكة ... لا ينطوى لجلالها تذكار
وبقيت فذا فى علاك ممجدا ... يحميك من عطف الالاه دثار

سوسة فى 30 ديسمبر 1960 (ابوجعفر)

الصادق مازيغ

مات العربى الكبادي

بقلم : ابـو الـوليد

٠٠٠ختمت انفاس شيخنا العربي الكبادي في اليوم السابع من فيفرى المنصرم المطابق للواحد والعشرين من شعبان من هذه السنة الهجرية سنة 1380 ، وكان مولده سنة 1880 المطابقة لسنة 1298 هجرية٠وقد ناهز الثمانين بقليل ، وانها لسن محترمة ، وفي مثلها يقول بعضهم وما ظننته سوى ابى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، متوجها الى بعض الرؤساء ، متمنيا له مزيد العز والبقاء

ان الثمـــانـين ــ وبلغتهـــا ــ قـد احوجت سمعى الى تـرجمان

وقـاربت مـنى خطى لـم تكـن مقـاربات ، وثنت من عنـان٠٠

ولله در الشاعر لبيد بن ربيعة الذى بلغ هو ايضا من الكبر عتيا اذ يقول:

اليس ورائى ان تـراخت منيتى ركوب العصا تحنى عليها الاصابع

ولئن كانت كل حياة ارضية فانية ، وكل نعيم ماديا زائلا بطبيعته ، فلقد نعم شيخنا العربى الكبادى بحياة طيبة هادئة ، وان لـم تخل فى النهاية من السقام والضنى الملازمين لعلو السن وتدهور القوى بعمل الليالى والايـام ٠

لقد عاش شيخنا عيشة ارضية طويلة لذيذة هادئة وديعة ، مستمدة بهجتها من ممارسة دواوين الشعر والادب ، ورواية أخبـار الشعراء ومناقلة روائـع آثارهم فى حصصه التدريسية ومجالسه العديدة اللابسة اثواب الانس والصفاء، والتى كان كثير من هواة الادب امثالى ، فى نضارة شبابهم ، وجدة اثوابهم ، ينتابونها ، مغترفين من معين ذاك الادب الرقراق ، وقد حبب اليهم ذلك التراث الادبى العربى الخالص ، وزينه فى اعينهم ، ورغبهـم فيه مـا كان يسبغ عليه شيخنا من رقة طباع ، ودماثة اخلاق ، وظرافة حوار ، وطلاوة بيان ، وفصاحة لسان ، وبراعة القاء ، ورشاقة استطراد ، وتفنن فى الانتقال من روضة غناء الى أيك خضل فينان ، ومن حدائق الاندلس الوريفة الظلال ، الى مجالس بغداد ومفاوز الحجاز فى غوابر العصور ٠ لقد كانت هذه المجالس الكبادية فريدة فى حسنها وبهجتها وفاتن ايحائها بما كانت تاتلق به من صور حية ممتعة طلية من التاريخ الانسانى والتراث الادبى والرصيد الممتع الثقافى ، مما كان يـرهف

المشاعر ، ويصقل الاذواق ، ويرقق حواشي الطباع ، ويفتح مغالق الآفاق ، ويروض جوامح الاذهان • ولئن كانت هذه الاحاديث منقولة فى معظمها عن كتب معلومة ليست بالمستعصية عن الايدى ، ولا بالممتنعة عن المطالعين ، فلقد كان شيخنا رحمه الله ينفض من فوقها غبار الترك والاهمال ، وينشلها من هوة النسيان ، وينظمها فى عقد مؤنق طلى من ذلاقة روايته ، وفساحة درايته ، ونفخ الحياة فى مواتها ، ويجمع الشتيت من رفاتها •

لقد قيل عنه انه راوية ، ولكنني ازعم انه كان ابعد من الراوية مدى واعمق من ذاك غورا • اذ لم يكن النقل والتسجيل همه ووكده ، بل كانجهبذا حصيفا فطنا ، وكان نقادة خبيرا متنطسا ذا حدس لا يخطىء مواطن الجمال ، وحس مرهف بصير بدقائق المعانى ، وفرائد المبانى وتفهم عجيب لمقاصد الكلام ، وخصائص المنظوم منه والمنثور • فانت لاتنفك معه فى جولة ممتعة مغرية فى اروع واجمل بستانوارف الظلال، متهدل الخمائلمنهمر الجداولمزقزق العنادل مؤتلق الاجواء متضوع عبير النرجس والورد والريحان ، فيه من كل حسن معنى ، ولكل فن منزل ومغنى ، وما ينفك شيخنا يجوس عبره مذللا قطوفه للمجتنين ، مروضا شوارد ظبائه للقانصين ، مسوغا عصارة رحيقه للشاربين ، فاذا هى خمرة شهية لاحرج فيها ولا اثم ، واذا هى نشوة عذرية ومتعة بريئة روحية لا غول فيها ولا هم عنها ينزفون • وبعد ، فما خلت رجلا تذوق ادبنا العربى التقليدى لا سيما الاندلسى منه والتونسى المتأثر به — ما خلت رجلا تذوق تراثنا العربى الخالص الممتع المؤنق كما تذوقه العربى الكبادى رحمه الله • ما خلت رجلا ادى مثله تلكم الرسالة الفنية الانسانية فى التعريف بجمال ذلك التراث والتنويه الحى الممتع الطلى بمحاسنه ومفاتنه والترويج لبضاعته التى كادت ان تقبر فى طى الكتب الهامدة الذاوية الزهور ، لولا ان قيض القدر لها امثال العربى الكبادى ممن جمعوا تالدنا بطارفنا ، وربطوا ماضينا بحاضرنا ، واحتفظوا لنا بكنز انسانى للثقافة الرفيعة والمتعة الروحية الخالصة والفن والجمال • لئن تذوق شيخنا الادب العربى ، واتخذ من مطالعة كتبه ودواوينه والغوص عن فرائد بيانه وفائق درره وناصع غرره شغلا كرس له حياته ، وابدع مسلاة عن اكدار العيش وآلام الدهر ، ورياضة نادرة تروق النفس وترفه عن الوجدان ، فهو المضطلع بأقدس رسالة ازاء ذاك الكنز من جمال مزهر نفيس • لئن تذوق ادبنا العربى على وجهه فلقد عمل على تذويقه لاجيال الناشئين المتعاقبة التى توافدت عليه بمزيد النهم وصادق التشوف الى آدابنا العريقة الامجاد • ولقد اضطلع الشيخ العربى الكبادى بهذه الرسالة

العربية اللسانية الادبية منذ تطوع للتدريس بجامع الزيتونة اثر احرازه على اجازة التطويع ، وكان فى مقتبل العمر يومئذ وزهرة الشباب • ومن العجيب ان ابواب التدريس الرسمية بقيت موصدة فى وجهه من طرف المهيمنين يومئذ على حظوظ الزيتونة ، وكأنما كان فضله وجم أدبه هو الذى اقصاه عن ذاك السلك الرسمي وجعله يرجع عشر مرات عن المناظرة بخيبة لن تحمل تبعتها بالطبع الاعلى اولئك الذين عرفوا بمقتهم لكل روح حرة وجحدهم لكل فضل ونبوغ • ولربما عزا ذلك بعضهم الى حرفة الادب ، وما تجره على ذويها من اخفاق •• ولربما كان للحسد مفعوله الذى لا ينكر فى رفت شيخ الادباء عن حضيرة التدريس الزيتونى اللائق بمثله من الاعلام فى البيان •• وهذا بعضهم يقول :

حسدوا الفتى اذ لم ينالوا سعيه   فالكل اعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها   حسدا وبغضا انه لذميم

وانما هو مأخوذ من قول عمر بن ابى ربيعة المخزومي

حسدا حملنه من اجلها   وقديما كان فى الناس الحسد

وكثيرا ما دبت حيات الحسد وعقاربه بين المنتمين الى سلك واحد ومهنة واحدة وأسرة واحدة،حتى ولو ارتفعت قدرا فى الظاهر، كأسرة التدريس وتلقين العلم، مما قد ينتظر من افرادها ان يتنزهوا عن مثل هذه الادران ويتخلصوا من ربقة البغضاء والتحاسد الذميم • ولئن اوذى شيخنا الراحل فى غابر شبابه من هذه الناحية ، فليس هو بالوحيد الذى اضطهد يومئذ من اجل ما حواه من كمال وتفوق على الاقران • وما اخطأ ابو العلاء رحمه الله اذ يقول فى مقام الفخر

تعد ذنوبى عند قومى كثيرة   ولا ذنب لى الا العلى والفضائل

ولعمري ان افدح الذنوب والخطايا عند الاوغاد السفلة والاشرار الاغبياء ان يجدوا تفوق العظمة نصب اعينهم يعارض سخفهم وجهلهم ويلقى بشعاعه على سفاهة احلامهم وباطل اوهامهم وزائف اقوالهم • فمن اجل ذلك انتصبوا اعداء الداء للعظمة والفضل ، وتاهبوا لطمس النور ، وتامروا على الفضيلة والحق والكمال ، وما ابلغ ما عبر عن ذلك ابو الطيب اذ قال

واذا أتتك مذمتى من ناقص   فهى الشهادة لى بأنى كامل

اضف الى ذلك ان شيخنا المعروف بانسياقه الى الدعابة والظرف وحلاوة التنكيت ربما نظم بعض المقطوعات الفكهة المرحة البريئة ، مما قد اول تأويلا

سمجا خاطئا في تنكم الاوساط الآنفة الذكر ، فأضمروا له العداء وتشفوا باقصائه عن مورد للرزق وعلو القدر كانوا في الحقيقة محتكرية لابناء رهطهم وطبقتهم • ومعلوم أن بعض الفضلاء قد حزت تلك المعاملة الحرقاء في أنفسهم فاثروا التغرب عن الاوطان ، وابتسمت لهم حظوظهم في غير هذه الديار • اما شيخنا الكبادي رحمه الله ، فما فت ذاك الحيف الصارخ في عضده ، ولا دفعه الى التذمر والاستياء ، فضلا عن ان يزمع الرحيل ، بل وجد له من أدبه الجم ، ودماثة خلقه ، وسعة آفاقه الروحية ونصاعة تفاؤلهومشرق ابتسامه ما كفاه آلم الحرمان ومضاضة الاخفاق ، وابقاه ينعم بخفض العيش ونقاوة الاحلام • ولله در اخينا احمد خير الدين اذ وصف تلك الظاهرة النفسية العجيبة اذ قال في مرثيته لشيخنا الجليل :

واذا ما سامه الدهر اذى اعلن البشر واخفى الغضبا

لقد غلبت طبيعة المرح والتفاؤل الذى هو اكسير الصبر ، وعتاد الظفر ، على مزاج شيخنا الكبير ، فكأنما اتخذ له شعارا قول الشاعر الحكيم :

فاصبر لها ، غير محتال ولا ضجر في حادث الدهر ما يغني عن الحيل

وبالفعل فما لبث الدهر العادل احيانا ان منحه الانصاف من طريق غير منتظرة • فلئن تنكر لشيخنا الكهنة الرسميون واقصوه عن ميدانهم لاسباب لا يعلمها الا الله او الراسخون في العلم ـ فلقد وجد الرجل اثر تعيينه بمعهد اللغة والآداب العربية بالعطارين افسح مجال للقيام برسالته الانسانية التى جنت ثمارها اجيال متعاقبة من الشباب ، كانت لولا شيخنا تبقى متقطعة عن ادراك مفهوم الادب العربي ، في نصاعة بيانه وروعة آثاره ورقة تعابيره • وكفى شيخنا فخرا ان تخرج على يده في أدب الاجداد ، وتراثهم الروحى امثال مجاهدنا الاكبر ، ورئيسنا الاوحد الحبيب بورقيبة الذي اصبح بمفعول ذلك الحب لأدبنا وشعرنا التقليدى ، عديل سيف الدولة في هذا العهد المتأخر من الزمان • فلا شك ان الفضل في التعريف بالأدب العربي المهضوم الجانب في عهد الاستعمار ، لاشك ان الفضل في تحبيبه الى النفوس وتقريبه الى عقول الناشئين انما يرجع الى شيخنا العربي الكبادي والى من سلك منهاجه واخذ عنه واهتدى بهديه ، ممن عملوا على بث الذوق الادبي وايقاظ الحس الفني المرهف بدلا من تلكم الشعوذة السخيفة الباردة التي ينسبها بعضهم الى العلم والى اسلوب منهجي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه • لقد آتت رسالة العربي الكبادي التثقيفية الانسانية العربية اكلها ، وبرزت آثارها واضحة لعين

الناظرين ، وانها لمستمدة من تقاليد انسانية عربية مثالية قد اهملت فى اعصر التزمت والانكماش والركود وتقييد الفكر وعرقلة الحياة ، ولكنها تقاليد ثقافية انشائية قد ازدهرت فى المع عصور قرطبة واشبيلية وتونس والقيروان كما يشهد بذلك العلامة ابن خلدون ، ولقد كان شيخنا رحمه الله من ممثلى تلكم النزعة الانسانية العربية الحرة الخلاقة التوفيقية التى تحقق للفكر الانسانى اقصى ما يكون من نمو وانبثاق • فرحمك الله ياشيخ الادباء وممثل عصور الظرف والجمال الحق ، ومـا احرانا ان نقتفى خطاك فى تذوق تـراث الفكر ، وارتشاف اكؤس الاشعار ، واستجلاء خرد البيان – فلا حياة حرة طليقة شهية كريمة من غير ادب وفن وجمال •

سوسة 9 فيفرى 1961

ابو الوليد

نفسى احـق بالهجـاء

قال محمد بن عبد ربه : دخلت مسجد الكوفة ، فرأيت رجلا لم أر قط مثله ، ولا اشد سوادا منه ، ولا انقى ثيابا منه ، ولا احسن زيا ، فسألت عنه فقيل هذا « نصيب » فدنوت منه فحدثته ، ثم قلت لـه « اخبرنى عنك وعن اصحابك » •

فقال : جميل امامنا ، وعمر بن إبى ربيعه اوصفنا لربات الجمال ، وكثير ابكانا على الدمن وامدحنا للملوك ، واما انا فقد قلت ما سمعت

فقلت له : ان الناس يزعمون انك لاتحسن ان تهجو فضحك ثم قال: افتراهم يقولون انى لا احسن ان امدح ، فقلت : لا

فقال : افما ترانى احسن ان اجعل مكان عافـاك الله اخزاك الله ،

قلت : بـلى

قال : فانى رأيت الناس رجلين ، اما رجـل لم اسأله شيئا ، فـلا ينبغى ان اهجوه فأظلمه او رجل سألته فمنعنى ، فنفسى كانت احق بالهجاء اذ سولت لى ان اسأله وان اطلب ما لديه •

الشاطىء البعيد

بقلم : **الهادى نعمان**

ايهـا الشاطىء البعيد البعيـد   هل لقلبى لـديك عهد جديـد
كنت بالامس فى نسائمك السك   ـرى غراما واليوم حبى طريـد
وخيـالى مشـرد وصبـابـا   تـى حيـارى ويقظتى تسهيـد
وحيـاتى كـانهـا أفـق التيـ   ـه ظـلام واللحـن فيه شريـد
الرمال البيضاء مهـد اذا المـو   ج تغنى واهتـز فيه النشيـد
وانا الطفـل حينمـا الأم تغنيـ   ـه طـروبـا مـدلل وسعيـد
كنت للخافق الشجى اغـاريـ   ـدا فأيـن الالحـان والتغـريـد
كنت كـل المـنى لقلب مـعنى   والامـانى لـدى المحب عهـود
عشت بالامنيـات يـا أمـل الا   مـال حينا فهـل غرامى يعـود
لست أبكى الهـوى ولا ذكريات   أفيبكيهـا ساخـر عـربيـد
انمـا الحسـرة الـتى اتـغنى   عبث فى الهـوى وفـن فـريد
عبث حينما ارى الروح اشـلا   ء حطامـا لـذاك ذاك السجود
اين ذاك الهـوى الذى اتفـانى   فى لظـاه عن قصده لا أحيـد
يا فؤادى تعشق المـوت فى الحب   ب لعل الشوق الشديد يزيـد
انـا اشتاق للعيون السكـارى   كيف اسلو والشوق شوق شديد
انـا احيـا اذا الفنـاء يتغشـا   نى فنـاء اللـذات وهى لحـود
ايهـا الشاطىء البعيد اتـأويـ   ـنى فـذا البـرد قارس وعتيـد
ان فى حضنك المضمـخ بالـد   فء سلاما تزكو لديه السعـود
وبخمر الحياة من ثغـرك القـا   نى ادرهـا سعـادة لا تبيـد
ان من شعرك المهفهف يـا قصـ   ـدى غطاء ايـان منه البـرود
انـا اهتـز للخمائـل اذ تهـ   ـتز فى خفـة وانت النشيـد
فاذا ما العنـاق كـان هو الـر   مـز فعجل فذاك عهـد جـديـد
اى شىء هاذى الحـرارة يا قلـ   ـبى اجبنـى فـانـنى لعميـد
ايها الشاطىء الذى غاب عن عيـ   ـنى ولكـن أراه وهـو بعيـد
يا تـرى انت سامح للذى يهـ   ـواك دوما فانت أنت الخلـود
أنـا اهـوى الحيـاة مـابين جنـ   ـبيك أغـنى ولا ازال اعيـد
ضمنى ضمنىً الى قلبـك المـر   يـد يـومـا لعلنى استعيـد
بعض مافى الوجود من أمـل حلـ   ـو والا فـاننى لبـديـد

وحدة اللغة العربية

بقلم : **زين العابدين السنوسى**

مـاية مليـون من البشر يتكلمـون لغـة واحـدة ، هى اللغـة العربية هذا مجد حضرى قد ورثناه ، ومن واجبنا ان نعتنى به ونحظيه حتى يـزكو وتتحقق بركته علينا ، لان وحـدة اللغة مقدمـة حسنة لتمهيد سبيل التفاهم والتوافق والعمل المشترك المنتج بين البشر ٠

والحضارة اليوم قد سلحت الانسانية بوسائل التواصل وبتسهيلات معتبرة ، للتماس الصوتى ، بعد انمكنت للصوت البشرى انيركب أمواج الاثير ويسير بسرعة الضوء اى 000 000 080 I ، مليار وثمانين مليونا من الكيلوميترات فى الساعة الواحدة ٠ بحيث انك تتحدث لصديقك فى الشطر الثانى من العـالم وانت جالس فى فراشك ، وبحيث تستمع الى **بغداد** و**اندونيسيا** من وراء **الصين** وانت فى دارك **بتونس** ، ثم انك تدير الزر نحو **نيـورك** او **المغـرب الاقصى** لتتعرف الاخبار على السن الاخرين وفهومهم ٠ فالعالم اليوم فى حضارة جديدة لم يكن يتوقعها آباؤنا الذين بلبل البعد السنتهم وشتتها التقاطع والانقطاع ٠ فلنتصور مبلغ التباعد الذى كان فى سالف العصور حيث يكتب **محمد بن ابى زيد القيروانى** لأهله فى مدينة **القيروان** عندما كان فى مدينة **بغـداد** يطلب العلم سنة 939 فيقول :

ذكرت **القيـروان** ، فهـاج شوقى   وايـن **القيـروان** مـن **العـراق**
مسيرة اشهـر للبعـران نصـا   او الخيـل المسومـة العتـاق

والحق مع الشاب **عبد الله بن ابى زيد** ، فان البعير **الفاره من الجمال** لايمكنه ان يقطع اكثر من الـ 20 ك٠ م٠ فى الساعة ، بينما الطائرة اليوم تضعك فى **بغـداد** لعشر ساعـات من ركوبك من **تـونس** ٠ فوسائل النقل ووسائـل التواصل قد تطورت تطورا هائلا ، لا بد لنا ان ندرك مفعوله ٠

ومما يذكر ــ هنا ان بعد الشقة فى ذلك الزمن لم يكن يقعد باصحاب الهمم على التواصل ، فان ابن ابى زيد هذا ، نراه ما كاد يـرجع لتونس ــ وهو فى الـ I7 من عمره حتى الف كتابـه « الرسالة » لمـدارس عصره سنة 939 م٠ وارسل بنسخة الى استاذه الشيخ **ابى بكر الابهرى** فى **بغداد** فوصلته لشتاء عامها ، فاستنسخ منها نسخة ثم اخرج للسوق النسخة الاصلية بخط مؤلفها

القيرواني الذى يزهو به الشيخ ويهز من نفوس المشارقة لان فى تدريسهم كتاب ذلك الشاب التونسي من اقصى بلاد البربر فى المغرب ومن قبيلة نفزاوة البربرية ... قال المؤرخون « فبلغت فى اسواق **بغداد** الى 200 دينار ذهبي ، فقال لن تباع الا بوزنها ذهبا ، فقبل المشترى ، فجاء وزنها 300 دينار ونيفا ، فانتشرت من يومها فى **العراق واليمن والحجاز ومصر والشام** وبلاد **النوبة** (يعنى السودان المصرى) **وصقلية** (هى جزيرة **سيسيلية** التى كانت ـ اذاك عربية مسلمة) وجميع **بلاد الاندلس والمغرب** وبلاد **السودان** »

انتهى ما حدث به معاصراه **ناصر الدين البجائي** و **سلامة التونسي** و من هاته الحكاية عن انتشار الكتاب التونسي فى سنة تاليفه (عام 327هـ٠) قيمة وحدة اللغة فى تسهيل انتشار الكتاب وتوحيد كتب الدراسة والتواصل فى المتسع الفسيح ، برغم الوسائل القاصرة التى كانت فى ذلك الدهر السحيق وما يستلزمه النقل والانتقال من المشقة والبذل ٠

ورأينا الزعيم التونسي **محرز بن خلف** يقرأ هذا الكتاب « الرسالة » فى مكتبه الذى اسسه فى بلدة اريانة وبقى ذلك الكتاب « الرسالة » **الف سنة عمدة من وسائل** التدريس فى جميع ذلك المتسع العربى ، **حتى انه لم يبدل فى الجامعة الزيتونية** الا بعيد الاستقلال حول سنة 1955 ، **ومازال عمادا فى كثير من البلاد** الاسلامية ٠

ولا غرو فان اللغات التى كتب لها ان تنتشر فى **متسع عظيم ، مثلما** توسعت فيه اللغة العربية ، قد كانت لا تكاد تحافظ على وحدتها ، اذ سرعان ما تقطعها اعصر الانحطاط التى تتراخى فيها اعصاب النشاط التى تجمع شمنها ، فيتباعد قربها وتتمزق وحدتها ، فينكمش كل طرف على نفسه فاذا هى لهجات متباينة ، واذا هى لغات شتى ، الامر الذى يمكن ان نعتبر معه عصمة العربية من ذلك التقسم ، كانما هى معجزة من معجزات الحضارة المدركة المباركة لولا اننا نعرف سبب هذا الخلود فى الوحدة ، حيث ان العلماء قد اجمعوا على ربط هذه اللغة بالدين الاسلامى عندما قالوا بعدم جواز ترجمة القرآن للغات الاخرى ، والصلاة لا تكون الا بتلاوة آيات من هذا القرآن ، فلا مناص للمسلم حيثما كان من ترتيل اللغة العربية خمس مرات فى اليوم عند صلواته الراتبة بنصها العربى لعهد محمد (صلعم) وهكذا سلمت العربية من تقلبات الالسن وتباعد البلدان ، فنجت مما وقعت فيه اللغة العبرية والسنسكريتية واللغة اللاتينية ، التى ماتت كلها ، وبقيت ولائمها المختلفة ، فانما بقى من اللاتينية اربع بنات (هن الايطالية والافرنسية والاسبانية والبرتغالية) فى حين ان الام (اللاتينية) نراها قد ماتت فاصبحت مجهولة من اللاتينيين انفسهم ٠ ولما جاء عصر الاتحاد والتواصل فى حضارتنا نراهم انما فزعوا لمحاولة تكوين لغة

جديدة اسموها **الاسبرنتو** ، جعلوها خليطا من لغاتهم الاروبية جميعا وضبطوا لها قواعد مطردة ··· وظهر بالفعل انها محاولة فاشلة لم تتأيد ، ورفضها جميع دول العالم ، مع ايمانهم بوجوب توحيد اللغة ، ورغم حاجة الحضارة لتحقيق الوحدة اللغوية ، لتحقيق التفاهم العالمى · لانهم قد تشتتوا فتباعدت لهجاتهم وتقطعت وحدتهم واصبح لكل لغة منها علمها وقواميسها واجهزتها ، وقد اقاموا تمايزهم الوطنى على افتراقهم فى لهجاتهم تلك !

بينما امم الوحدة العربية لم تصب بشيء من داء التفتت والاختلاف فى اللهجات : المصرية والحجازية والعراقية والمغربية والتونسية ، بل ان جميعها تنص فى دساتيرها ، على ان لغتها هى العربية ·

واذكر منذ عام واحد قد التقيت مع المستعرب الفرنسى الاستاذ **ريجيس بلاشير** وكان المجلس الذى نحن فيه يخوض مشكلة اللهجات واللغات ، فتحدث هو بروح سمحة ، عن اعجابه ان راى العربية حافظة لوحدة جميع العالم العربى وحتى العالم الاسلامى الكبير ، بحيث ان المشقة الوحيدة التى تحملها فى اسفاره فى العالم العربى ، ان نزع عن لسانه اللهجة المغربية التى كان ينطقها بعادته حسب اقامته الطويلة فى المغرب الاقصى فهو اذ يطلق لسانه باللغة العربية الفصحى يجد حسن الاصغاء والتفهم من رجل الشارع ومن حمال الرصيف ورجل السوق ، عامة ، وانه يجد مع ذلك التكريم والاعتبار مرافقا ومساعفا ببركة هاته اللغة المحترمة عند الجميع · وفى حديثه ذاك رأينا مبلغ اعجابه بهاته الوحدة وبذلك التكريم ·

واحسب ان العرب فى كل طرف من العالم يشعرون بعزة انهم ليسوا اقلية لغوية اذ يبلغ من يتكلم العربية ماية مليون من البشر السمر والبيض والسود والصفر · والدول العربية حيثما كانت تعتز بهذا الاتحاد اللغوى ، حتى لو تنابذت لحظة من اللحظات ·

◆ ◆ ◆

لكن الواقع اننا ــ فى اعصر الظلمات التى سادت العالم العربى فى القرنين الماضين ــ قد تشعبت بنا اللهجات ، حتى اصبح المستمع التونسى للنكتة المصرية لا يكاد يفهمها ، فضلا عن ان يتذوقها او تهز من اعطافه · وهكذا الاغنية فى جميع الشعوب العربية فان لهجتها المحلية ربما اضاعت كثيرا من تاثيرها ، اذكر من ذلك ان السيد **حقى على اليمنى** كان استغرب سماع اغنية للاديب **عبد الرزاق كرباكه** فجاء يسأله لماذا تطلب البؤس فى اغنيتك ، ثم قالها « **اعطينى بوسه** » فهو لا يعرف الكلمة التونسية « **البوسة** » بمعنى « **القبلة**

العربية ، فردها الى البؤس ومادته الشقية ، واستغربها والبوسة معروفة لجميع شعوب البحر المتوسط وهى من اصل لاتينى نجد منه الباتيشى فى الايطالية و« البيزى » فى الفرنسية وكذلك نحن عندما نسمع اغنية محمد فويتح المغربى « **البرقى كوانى** » ويعنون بها « البرقى » فى المغرب « **الاسمر** » فالمغنى يشكو حر غرامه بتلك السمراء التى كواه حبها بينما التونسيون لا يعرفون من « البرقى » الا البرق من الاسحبة والتبريق للعيون والبرقيات التلغرافية ومثل ذلك « **شو بدك** » الشامية ! فضلا عن الغنات والكشكشات والكسكسات المحلية هنا وهناك ، بحيث تكون لهجات غريبة لم تتعودها الآذان فى الجهات الاخرى • ومسألة اللهجات تبلغ مبالغ كبيرة فى الفروق بين الاقطار بل حتى بين اطراف القطر الواحد ••• مما الف فيه المستعربون كتبا كثيرة عن لهجة تكرونة او لهجة صفاقس او حتى لهجة يهود الحارة الاسرائيلية داخل العاصمة التونسية ، فان لها خصائص تميزها عن لهجة سائر حومات البلدة نفسها

والذى يهمنا من جميع ذلك انما هو توحيد الانفاظ وتقليل الاهمية فى اللهجات بتقريبها الى بعضها ، مع توحيد مخارج الحروف • وبذلك يعود للعربية وحدتها وصفاؤها •

وهذا هو المشكل الذى يجب حله : كيف يمكن ان توحد اللغة العربية بين جميع الشعوب العربية اليوم ؟

وهذا ما جئنا اليوم لنحل لغزه • ولغزه بين الحل ، قريب منا حله قربا بهرنا عن ملاحظته ، فتساءلنا وتخالفنا وعجزنا ، وهو تجاه اعيننا قريب منا، قربا غريبا ، بحيث لم نعد نراه

◆ ◆ ◆

لقد حسب اكثرنا ان الحل الوحيد يتمثل فى رجوعنا الى القواميس العربية وماذا نعمل مع القاموس العربى الذى يجعل للجمل 500 اسم وللكلب 9 اسماء ، وللهر من الاسماء ما اطمع فيه الاعرابى حتى جعل يتصيد القطط يريد بيعها ، فلا يجد للقط ثمنا يناسب كثرة اسمائه تلك ، فهو يطلقه ــ لوجه الله ــ عتيقا ، تكريما لاسمائه ، كما حدث به **الاصمعى** فى مجلس **الامين وهارون الرشيد** •

ونعنى بذلك ان حل **المشكلة باعطاء الحرية** لكل قطر ان يختار ما اعجبه من السنانير او القطط او الهرة او غيرها ، لايسهل شيئا من مشكلة المفردات

ثم انه لايمس شيئا من مشكلة اللهجات ، مطلقا ، مع اننا نطلب حلا حقيقيا يوحد اللسان العربى فى **زحلة والكويت واريانه وصفاقس وفاس** . ويمكننا من التفاهم الحقيقى ··· يمكن الامم العربية بمثقفيها المتازين وعموم عملتها العاديين ، نساءا ورجالا ، من التحادث ، مثلما عليه الشعوب : الفرنسية والامريكية والتركية ، اليوم ·

وهذا الدواء كان معمولا به فى قرون النهضة العربية ، نجد نصوصا عنه فى اقاصيص **الجاحظ** مما طبع ويمكن مراجعته ، وانما نورد هنا نصا لم يطبع بعد فى حكاية بديعة من الكتاب الذى كتبه **ابن رشيق القيروانى** فى القرن الخامس هجريا ــ وهى سنة 1039 ميلاديا ــ واسماه « **انموذج الزمان فى شعراء القيروان** · **والقيروان** اذاك عاصمة **لافريقية** كلها ، اعنى المتسع العظيم الذى يشمل ما نسميه اليوم « **ليبيا وتونس والجزائر مع** الصحراء الكبرى الى خط الاستواء » قال :

« كنت مارا على كتاب بالقيروان واذا بالمعلم يصخب وسط طلبته ويصيح بهم:

« يا فراخ المزابل ونتاج الارازل

« اقرؤوا ، لا قرأتمو غير سحر وباطل

« روح الله منكم عاجلا غير آجل »

فهذا النص المضحك اردنا بايراده استلفات النظر الى ان لغة المؤدب كانت فى القيروان لعام 430هـ العربية ، العربية الفصحى التى نريد اليوم ان نعود تعميمها بيننا ، ولا سبيل موصلة لذلك غير « المدرسة الموحدة اللسان » وهو السبيل الذى توحد به اللسان فى فرنسا وفى ايطاليا ، وغيرهما من اطراف العالم الناهض فى المدرسة الموحدة ، فانت اذا دخلت المدرسة فى نابولى لن تجد المعلم يستعمل اللهجة النبوليتانية ابدا ، ولو فى رياض الاطفال ، فان الولد والبنت يجدان آذانهما قد طرقتها اللهجة واللغة الفصحى التى ستكون لغتهما العامة ، وكذلك الحال فى بروطونيا من يد فرنسا الممتدة نحو الجزر البريطانية ، فان المدرسة لن تستعمل اللهجة البروطانية بحال ·

وفى الحقيقة لو ان المدرسة المصرية والسورية والمغربية جعلت لغة القسم والفصل والمدرسة ، هى اللغة العربية ، لامكننا ان نضمن هاته الوحدة على اكمل

وجه واشرفه ، وباسرع طريق خصوصا اذا توفق العالم العربى جميعه لوضع برنامج تعميم التعليم على الصبيان ذكورا واناثا ، مثلما قد وضعت برنامجه الدولة التونسية ليكون جميع اطفالنا فى المدرسة الوطنية الموحدة ، فى اقرب حقبة زمنيـــة محدودة ٠

فلنلز اساتذتنا فى مـــدارسنا ومكاتبنـــا لان لا ينطقوا فى المـــدرسة وفى اثناء دروسهم الا باللغة العربية ، لا اللغـــة الدارجة المحلية ٠ وبذلك نسهل تكوين الجيل الذى يتكلم العربية مع بعضه بعض مثلما يتكلم الفرنسية ، بفضل ان المعلم التونسى لا يقرئه الفرنسية باللغة الدارجة بل باللغة الفرنسية الموحدة٠

◆ ◆ ◆

ولعل هذا مما يجب ان تعمل له الجامعة العربية ، ولعلها ستجد فيه متسعا مفيـــدا وعمليا ، لنشاطها ٠٠٠ اكثر من بعض الميـــادين السياسّية البحتـــة الشائكة ، والتى لم تتمكن من ان تتقدم فيها خطوة ، بينما هذا الميدان الثقافى يتطلب منا حلا عمليا لايتوقف على موازنات عالية بعيدة عن حدودنا او قدرتنا، ولا هو مما تتشعب فيه اهواؤنا الداخلية ، ابدا ٠

بينما الزاز اساتذتنا ومعلمينا لان يقرئوا اولادنا ويكلموهم بالعربية داخل المدرسة ، امر متوقف علينا وحدنا وفى طوقنا ان نعمله بحسن ارادتنا وحدها

فهذا اقتراح نتقدم به لمجتمعنا الاكبر ، ولجميع دولنا العربية فى مشارق الارض ومغاربها ، فعساه ان يحظى بالقبول ، وعسى ان نتوفق جميعا لما تكون به عائدة بالخير العميم

ز٠ السنوسى

الـــــدوح الفـــــارغ

بقلم : **بيــة النــودى**

أشعلت ثريا ضوء بيتها وأخذت تهيئه لليل كالعادة. أدخلت الكانون ومائدة صغيرة كانت قد وضعت عليها طبقا فيه الكؤوس و « سكرية » و حقة التاي.

فرشت زربية أمام خزانة الملابس، ثم اخذت قرقافها ووضعته على الكانابای، أدخلت بعض الملابس المغسولة التي كانت قد جفت لكي تسهر على طيها. كان البيت منظما مرتبا. وهذا دليل على انصاحبته ذات ذوق.

في ركن من أركان الحجرة سرير مفروش بلحاف مطرز وضع عليه وسائد بكل ترتيب. في صدر البيت توجد مرآة بها رف عليه ادوات التجميل. وبالجدران اطارات معلقة. كما يوجد في نفس البيت دوح جميل عليه علامات الانتظار.

كانت الشابة تهيء بيتها ببطء مختالة، متبخترة ، مفتخرة ببطنها.

قدم الزوج من عمله تعبا يطلب الراحة، ودخل مع زوجته الى المقصورة التي جعلت غرفة للطعام.

جلسا امام المائدة لتناول العشاء، فدار بينهما حديث :

— آش بيه وجهك أصفر ؟

— لا شيء.

— بالكش عندك وجيعة ؟

— لا - لا.

— حتى العشاء ما تعشيتش كيف العادة، لازم عندك حاجة ؟

— تـ شي ما عندي يا ولدى

وبعد العشاء دخل الزوجان بيتهما للسهر ، فشربا التاي وسمرا بالحديث حتى كثر تثاؤب الزوج وتناعس ثم اسلم نفسه للنوم .

اما ثريا فهي لا تزال ساهرة في سكون شامل ما عدا تنفس الزوج المنتظم ، او تكتكة الساعة التي وضعت على آلة « الراديو ».

وبينما هي منهمكة في تطريزها البديع، أحست بالم في بطنها فرمت بقرقافها على الارض و نهضت مسرعة للسرير لعلها تأخذ راحة. وتقلبت على الفراش

محاولة ان تنام ولكن النوم يأبي القدوم . وازدادت الاوجاع عليها فصاحت آه جوفي ! ...

فاستيقظ محمود وسالها عن صيحتها، فطمأنته بأنها اوجاع خفيفة.

رجع محمود الى نومه وبقيت ثريا تغمض عيناها تارة وتفتحهما اخرى واخيرا نهضت تتمشى في البيت ، وكثر الالم عليها، فاحمر وجهها حتى كاد ينفجر من الدم . وتيقنت انه المخاض لما صارت غير قادرة على المشي.

تهالكت على اقرب اريكة وجدتها امامها واطلقت صرخة عالية افاقت الزوج ثانيا فسألها :

❀ ❀ ❀

– آش بيك ؟

– نحس في وجيعة كبيرة يا محمود.

– نعطيك جغيمة زهر والاعطرشية ، والاتحب نناديلك الطبيب ؟

– لا طبيب ولا زهر ، برة توة لخالتي صلوحة باش اتونسني ومن بعد امشي للقابلة هذه وجيعة متع حس .

خرج محمود مسرعا الى خالتي صلوحة ، وكانت تسكن بعيدا عنهما. فماذا يفعل ؟ تمنى لو كانت له اجنحة فيطير وكان الشارع خاليا. سار محمود ينتظر تاكسي، ولكن رغم طول الانتظار لم يعثر على اي حركة سوى معركة بين القطط.

اتجه الى الطريق العام لعله يجد احد المارة.

بقي طويلا وهو في خلوة الشارع المضيء بأمبوبات كهربائية ومن فوقها القمر والنجوم .

كان محمود سابحا في افكاره . في الاحلام السعيدة التي سيقضيها مع مولوده القادم. وكان في نفس الوقت خائفا على امراته.

وفجأة مرت تاكسي فهم محمود بايقافها لكن وجدها عامرة وبعد قليل مرت اخرى ثم اخرى ولكن من سوء الحظ كانت جميع السيارات التي مرت امامه عامرة فماذا عساه ان يفعل ؟ هل ثريا تضع في غيبته وهي وحيدة في الدار هذا ماكان يفكر فيه.

وبينما هو كذلك مرت تاكسي فاعترض طريقها واوقفها عنوة وقال :

– مرتي في حالة حس ومانيش باش نخليك تتعدى والسيد هذا ينجم يأخذ وحده اخرى اما انا ما عادش نجم نزيد نستنا.

فنزل راكبها بطيبة خاطر قائلا لمحمود :

– تفضل يا خويا اشبيه عاد كيف انت مغصور . المؤمن للمؤمن رحمة. تفضل

ياخويا ربي يخلص وحلها النافساء وارتاح قلبه لما ضغط السائق على محركه. فغدت السيارة تبتلع الكياس تحتها ابتلاعا.

وصل الى دار خالتي صلوحة واخذ يطرق بابها بشدة وعنف فلم يجبه احد سوى الكلاب بنباحها. فغلى الدم في عروقه وكاد يكسر الباب غيظا.

استيقظت العجوز ترتعش من البرد ، ولما اعلمها بالامر لبست سفساريها وعصابتها واخذت عكازتها وصاحبته. فاوصلهما تاكسي ثان للمنزل.

* * *

دخلت العجوز ، ولما رات ثريا على ذلك الحال من الاوجاع وهي على مضجع المخاض ، اخذت تواسيها وتخفف عن آلامها بعبارات مملوءة عطفا وحنانا

— راك انتي كيف بنتي ياثريا ربي يعلم معزتك عندي. شوف هكة ربي عمل الاولاد زينة الدنيا، ايجا بنيتي في حجري ربي معاك.

اسندت ثريا راسها على صدر العجوز والعجوز تضغط على راسها وتتلو التعاويذ واخيرا عمدت الى القصص لتسرى على الحامل :

— قالك على هاك التاجر ما عندوش اولاد . نهار هو قاعد يخمم تعدى عليه المدب، قال له لاباس عليك يا سي فلان، حكى له، يا اخي عطاه تمرة من الحج وقال له كول انت شطرها ومرتك شطرها تحت. الميزاب القبلي توه يرزقك بصغير ...

وتمادت العجوز في خرافها حتى كثر صراخ الحامل، وتعالت اصواتها. وفجأة لمحت امامها امراة لطيفة بشوشة لابسة متزرا ابيض بيدها حقيبة وهي تقول بوجه ضاحك : لاباس - لا بأس.

كسرت القابلة انبوبة الدواء ، وافرغت السائل في المحقن ثم تقدمت لتغرز الابرة في جلد الحامل. ولكن العجوز امسكت بيدها فجأة وصاحت بها بشوية استنا يا سيدي عبد القادر. يا سيدي "الرصاص خرج الراس". اقرا يا ثريا آيات الكرسي ماك حافظتهم.

نظرت القابلة اليها بنظرة مملوءة سخرية ثم غرزت الابرة .

امامحمود فبقي يطلب الله لاعانة امراته ، يتمشى بين حجرة واخرى وبهو المنزل والسقيفة ثم يعود . وكان من حين لحين يسمع صوت زوجته وهي تصيح يا رسول الله معايا. اخذت العجوز عصابتها وقرطت بها راس الحامل وقالت اسم الله على بنتي اسم الله.

بدات القابلة تضغط على جوف ثريا ، وثريا تصيح . والخالة صلوحة ترفع صوتها قائلة : سايسها بشوية شنوة يا خي من اين جات يا وخيتي هالغشيرة.

وآين تعرف انت انا قبلت امها.

***

واثناء مشاجرة القابلة والعجوز تم الامر، وخرجت خالتي صلوحة واطلقتها زغردة طويلة دوى لها الليل وقالت :

— المبروك - المبروك يا محمود !

استبشر محمود بمولوده واحس بزيادة في شخصه انه صارابا، وسمع صوتا جديدا ، بكية لمولود ترن في اذنيه، وفرح لقدوم الملاك المنتظر الذي كان يترقبه منذ تسعة اشهر .

ألبسته القابلةملابس صغيرةمطرزة ولفته في الاقمطة التي كانت قد وضعت في حقيبة خاصة بملابس المولود . ثم قصت له صرته ووضعته في دوحه الجميل.

عالجت النفساء كما ينبغي وطلبت لها الشفاء بعد ما هنأتها وودعتها معلنة انها ستعود غدا لزيارتها لكي تفحص صحتها وصحة المولود، وصاحبها محمود للباب حيث توجدسيارتها امامه. ثم دخل ليرى ابنه وزوجته.

كان المولود بنية، ففرحت بها ثريا كثيرا . ابتسم محمود وقال : سبحانك يا ربي شوف شوف ما أحلاها يا ثريا شوف ما اصغر يديها ووجهها. . وفمها ما احلاه !

نعم ! المولودة جميلة وصغيرة جدا ، بيضاء، وحمراء، عيناها نصف إغماض ذات فم صغير ينفتح في بكائها فيظهر لغبها احمر رقيقا .

سعد الزوجان بها، فمنذ السهرة كانت الدار لزوجين والان تكونت اسرة تجمع بين ابوين ومولود .

خرجت الخالة صلوحة من البيت وملات يدها بخورا ورمت به وسط الكانون المتقد فتفرقعت طلقاته، وعجعج دخان شذي منعش وقالت : اللهم صل على النبي الوشق والداد في عينين الحساد ! ماذا يربح وينال عبد ان صلى على رسول الله ورر..

***

قال محمود لزوجته : آش تحب تسميها يا ثريا ؟

واخذت ثريا تتذكر اجمل الاسماء واحسنها ، وبدات تفتش عن اسماء بعض الصديقات اللواتي كن قد زاولن معها التعليم.

فعثرت على اسم سلوى. ثم هدى، ثم وفاء، وعليه، وهاجرونجوى، وليلى واخيرا قررت ان تسميها رجاء فلم يرض الزوج لهذا الاسم وقال لها :
— علاش ما نسميوهاش على امي خديجة آش بيه اسم امي الله يرحمها.
— لاياسيدي دبر على نفسك هو لازم اسم امك باقي موجود هذا بكلما عجبكش رجاء ماني نعرفك لازم تتعرض لي في كل شيء . اسمع يا سيدي اسم امك انتيكة وانا نحب اسم خارج.
وبينما هما كذلك أقبلت عليهما خالتي صلوحة : — آش بيكم تتخاصموا هذا كله على خاطر الاسم ؟ شوف يا محمود لا تسميها رجاء ولاخديجة، سميها قدرية. وليدي لو كان موش سيدي عبد القادر ما كانت تخلص مرتك. "الشي لله يـــا سيدي عبد القادر."
فلم يقتنع الزوج بكلام العجوز وسخر من تفكيرها البسيط كما ان ثريا صممت على الاسم الذي اختارته، وغضبت.

فخاف محمود عليها لانها في صراع مع الموت،
ووعدها بأنه يسميها رجاء لكي تقتنع، ولكي لا تتجدد لها الاوجاع لشدة غضبها.

❀ ❀ ❀

عاد الحبور في المنزل وزودت العجوز الكانون بفحمات كبيرة لامعة، وغرفت من حقتها نفة وافية، وبعثتها في دماغها، وطفقت تمروح والشرار يتطاير كأنه فريق من الاولاد خارجين من الكتاب اسرابا متلاحقة.
— علاش يا امي صلوحة هاالكانون الكبير.
— وه ! ماني باش انطيب الزرير ، قل لي وين محطوط الجلجلانباش نعمل برشة ونهز وعدة لسيدي عبد القادر.

❀ ❀ ❀

بدأت وجوه الصباح تظهر وبدأ الجيران يفدون على المنزل فكثر الكلام والضوضاء، وكثرت فيه الحركات.

اراد الاب ان يقبل ابنته لما راها تبكي، .وقبلتها امها كذلك. ثم ارجعتها الى دوحها وانشدت لاول مرة انشودة على الدوح .
أخذت البنية تبكي وتصيح بصوتها الصافي اللطيف. فبدأت ثريا تسكتها بحنان ، وخافت عليها اشد الخوف. وماكادت تهدأ حتى سكتت سكتة لم تعد تتنفس فيها.

فزعت ثريا على ابنتها واخذت تحملق في جسمها وعينيها لكن ماالفائدة ! انها ماتت.

جالت الدموع بين اجفان الام، وذاقتحرقة الامومة وطعمها وبكتعلى حرمانها من رعاية الصغير.

وطلع النهار فحملت البنية للمقبرة. وبقيت الوالدة تبكي والاب يفكر حزينا على كبده. اسند راسه بيديه واخذ ينظر للدوح الذي صار فارغا. اما ثريا اخذت تقلب الثياب التي لم تعد بها حاجة وقالت : يا ناري يا ناري على بنتي ما شبعتش فيهم لشكون يقعدو هالحوالي والقمايط.

❁ ❁ ❁

خالتي صلوحة شرعت تستعد للانصراف، وبدات تطيب خاطر الزوجين الشابين قائلة : آش باش نعملوا وليداتي هذه حاجة ربي اصبروا ربي يعطيكم الخليفة.

انتظرت ثريا فرصةخروج محمودمن البيت، ولما لبست العجوز "سفساريها" وهي تقول لها :

— رتح نفسك عيش بنتي وما تحط شيء في بالك.

انتزعت ثريا هذه الفرصة، فرصة رجوع الامل وهمست لها : — امي صلوحة عيش امي انشد المدب ما زال شي من تمر الحج جيب لي كعبة.

اتجاهات الشعر التونسي الحديث

بقلم محمد الحليوي

- 2 -

عرضنا فى المقال السالف * بعض مواقف للشعر التونسى الحديث فى الفترة التى سبقت معركة التحرير ، وهى مواقف معبرة عن القلق الذى كان يساور النفوس ، من استمرار الطغيان الاستعمارى واستفحال المشادة بين الحاكمين بأمرهم وأحرار الحركة الوطنية . فكان الشعور بالضيق والحرج يزداد كلما ازدادت السلط الاستعمارية عنادا وتكالبا فى معاكسة الامانى القومية وقمع الحركات التحريرية واضطهاد الزعماء والاحرار .

فلما بدت بوادر الكفاح المسلح والاحتكام للقوة أخذ الشعر يحيى هاته البوادر ويعلن ابتهاجه بظهورها .

فنرى فكرة المقاومة بالقوة تظهر — أول ما تظهر — فى شكل محلى محدود يدل على أن هيبة المستعمر والرضوخ لارادته أصبحت من الامور التى لا يقبلها عامة الشعب فهذا عبد المجيد المطوى يتحدث فى قطعة « ايمان عنيد » عن فتية كانو مهددين بالاجلاء عن ارضهم من طرف الغاصبين فتعاهدوا على الكفاح حتى النهاية واخذوا على انفسهم الا يعودوا لقريتهم حتى يطمئنوا على مصير ارضهم ويدفعوا عنها شر الاغراب واستمع اليه يصف لقاء الفتية مع المغتصبين فى هذا النثر الذى لا نجرؤ على نعته بالشعرى لانه تحلل من كل قيود الشعر :

واخيرا تاه الليل الضرير … فى مغازات النهار العريضة
فجاء الاغراب الاشقياء … وبين أيديهم معدات الحفر
ومن خلفهم جنود غلاظ … تداعب أيديهم الخشنة
بنادقهم الصلبة — ودوى الرصـــــاص، رصاص الاغراب الاشقياء
ولكن الجموع العزلاء لم تعـــــرف التقهقر والهزيمة
متقدمت تتحدى البنادق … والآلات الصماء
وطال الصراع ... وسالت دماء ... الخ (I)

---

* راجع الفكر عدد 5 — السنة السادسة

(I) الندوة السنة الثانية عدد II ص 53

ومحسن بن حميدة فى قطعة « حبيب وحبيب » يرى أن الليلة التى نطقت فيها بنادق الثوار هى أول ليلة تطلع فيها الكواكب والنجوم ـ أما الليالى قبلها فكانت ليالى مظلمة · بل ليالى الركود والهمود · يقول :

هذى الكواكب والنجوم — طلعت على ليل جديد

ليل الاسود ، نيل النسور — ليل الكفاح المنتصر ···

ثم يتحدث عن رجال الكفاح أولئك الذين لهم سواعد من حديد ونفوس من جليد ، وجسوم ليس يعييها الكفاح · أبدا يسهرون بلا كلل أو ملل فى الليل والنهار ، فى وسط القفار ، فوق التلال ، وفى قفر الرمال ، وعلى الجبال ـ واستمع اليه يحيى شرر النار المنطلق من فوهات المدافع :

« شرر تطاير فى الفضا ··· نجم أضا ·· »

« طلق لمدفعنا الحبيب ··· فأضاء ليل من جديد »

« وسيعقب الليل الجديد ، ليل الكفاح ، ليل الاسود »

« ليل النسور ، صبح جديد صبح أغر ، صبح الاخوة والظفر » (2)

ومصطفى الحبيب بحرى فى قطعة « كانت ليلة » يصف معركة فى قرية من القرى التونسية · يقول :

« كانت ليلة بعد ليال · والقريحة تسبح فى الدم »

« وتضج بأشلاء الموتى ودموع نساء وصبايا ··· وصراخ »

« الاطفال الرضع ، وصدى المدفع ، أحقاد تهتزلها القرية »

« آلاف تبنى قمم المجد الاحمر بالدم ·

« لا سلم ، لا هدنة ـ قبل الحرية ·

« لا مجد لابناء النوم »

« فابعث نارك فى الزيتون أحرق »

« ما زرع الغاصب فى أرضك ـ أحرق أشلاء الغاصب ··

« فى أرضك يا ابن المغرب » (3)

وهذه ليلة أخرى يصفها الشاذلى زوكار فى قطعة « من ليالى الرعب » وهى ليلة 21 أوت 1953 المشؤومة ـ الليلة التى جندل فيها السفاحون ـ بكل نذالة ـ ثلة من أحرار المنستير ـ وقد أجاد الشاعر وصف جو تلك الليلة المفعم بالرعب والروع والموت ، وتحدث عن انقضاض سيل الجند المدجج بالسلاح · يسطو على

(2) الفكر السنة الاولى العدد الثانى ص 22

(3) الفكر السنة الثالثة ص 450

الاطفال والشيوخ والنساء الخائفات وعن صراخ الموت المتصاعد فى الليل وموكب الرعب الراقص فى الطريق وختمها بهاته النغمات المتفائلة :

« والآن قد طلع الصباح ، لا شيء غير صدى النواح »
« ودم الضحايا ٠٠ فى المدينة والسفــوح »
« شفق يشع وراءه نور جديد ٠ سيغور فى تلك الجراح »
« ويزيل رعب الليل والخوف الشديد ٠ وينير هاتيك البطاح »
« وستهتف الارواح أرواح الضحايا الهائمين »
« فوق الجموع السائرين ٠٠ نحن الدماء »
« نحن الذين على أكفنا ٠٠ قد أتينا بالصباح » (4)

وتلتهب المعركة ، ويلتهب معها الحماس ويتقدم المجـاهدون بدون خـوف ولا وجل ، ويسقط أحدهم فى ساحة الفداء على مذبح الحرية فيحييه مصطفى الحبيب بحرى فى قطعة « الشهيد المجهول » :

أخى قد قضيت بنـار الجنـود   بنـار العقـوق بنـار الجحـود
فلم ترض بالذل رهن القيـود   وثرت تنـادى لفجـر سعيـد
وهبت الحيـــاة فـداء الحيـــاة   وهدمت سجنـا بنـاه الطغـاة
وشيـدت فى القمم الشامخات   صروح الكفاح لبعث جديد (5)

والشاعر نفسه يؤكد عزمه على خوض المعركة دون أن يهاب ما أعده الطغاة من حديد ولهيب ودماء فيقول فى قطعة « سأرتمى » :

سأرتمى على الحديد واللهيب والدم
سأرتمـــــــى
واشترى حريتى بما يراق من دمى ٠
سأرتمى ٠٠ لثورة المنتقم ٠ وأرفع الراية رغم المجرم
سأرتمى كما ارتمى هناك اخوتى
ضحى الرفاق فى ربــوع بلدى ٠ (6)

أما محسن بن حميدة فقد وصف لنا فى قطعة « صيحة شهيد » مقدار حقده وغيظه على هؤلاء المتوحشين الغاصبين الماكرين المهدرين دم البرىء الساخرين من الشقى ، الحاقدين على الصبى ٠ يقول :

---

(4) الفكر السنة الاولى العدد 3 ص 33
(5) الفكر السنة الاولى العدد 6 ص 26
(6) الفكر السنة الثانية ص 332

سيأبث حقدى فى القيود متوحشون
الآكلون لحوم شعبى متوحشون
المانعون صراخ قلبى متوحشون
وغدا اذا كان المساء سيزورهم شبحى المروع فى سكون
سيزورهم حقدا ونقمه سيزورهم من غير رحمه
سيزورهم شبحى المميت لا ولن يرضى السكوت
سيزورهم أبد الدهور ويصيح من خلف المنون
متوحشون (7)

وتتواصل المعركة ويسقط الضحايا فى جميع الميادين · شهداء فى ميدان الشرف وشهداء ينفذ فيهم حكم الاعدام من طرف الطغاة فى الساحات العامة فيسجل الشعر ذلك فى قصائد حزينة باكية أو قوية عاتية · منها قصيد محمد العربى صمادح فى شهداء السيجومى وهم الذين احتفل بذكراهم فى المكان الذى أعدموا فيه وهو بحيرة السيجومى ·

فيقول محمد العربى صمادح :

هنا فى البحيرة أين سقطتم وسالت دماؤكم الغالية
لتنبت حرية الابرياء وتورق أغصانها القانية
وينتصر الحق فى أرضنا وينشر أعلامه العالية (8)

وتسقط الضحايا فى حادثة 9 افريل 1938 ، ويرى محمد العروسى المطوى قطعة مخ لاحد الضحايا فى ذلك اليوم الاغر من حياة الشعب فينطقه الالم بقطعة من النثر الشعرى الذى كتب فيه كل أشعاره فكان توفيقه فيها محدودا ، ومما جاء فى هاته القطعة التى يصف فيها حركات الجموع الثائرة والمنادية : « برلمان تونسى » ، يقول :

صيحة كانت تهز الارض هزا
وضعاف الناس لا تدرى مداها
بينما الاعداء تصطك ارتعاشا وارتجافا

(7) الفكر السنة الاولى العدد الاول ص 36
(8) الندوة السنة الرابعة العدد 7 ص 19

صيحة كانت تدوى فى الفضا يدرك الاعداء مغزاها البعيدا
فتصدوا نحوها كي يحبسوها فى الحناجر ، بالخناجر
وبمقذوف المدافع والبنادق (9)

ويمر الحول على هاته الذكرى والامة لا تزال فى أحزانها واجراءات العسف فى أشد طغيانها فيتذكر مصطفى خريف كل ذلك ويتذكر الزعيم ورفاقه فى السجون ، فينظم رائعته الدالية التى أولها :

سلام الله للبطل المفدى وتسليما لدعوته وعهدا
وآيات من الاخلاص تتلى ودينا عن كواهلنا يؤدى

وفيها يقول :

الا ان الدم المهراق مهر لكل كرامة فى الكون تسدى
مقدسة ضحيته مجاب بها القربان كم أغنى وأجدى
فبوركت الدماء الحمر سالت لتسقى أرضنا سهلا ونجدا
وبوركت الدماء جرت حياة ونورا شاملا وهدى ورشدا
وبوركت الدماء لقد أقرت لنا حق البقاء وكان أودى
دم الشهداء ارهاص ينادى بأن الله للباغى تصدى (10)

وتبدو فى الافق ملامح الانتصار بعد الكفاح المرير ويتراءى من خلال الظلام ذلك الصباح الجديد ، الذى طالما بشر به الشعراء فى قصائدهم فى غمرة الكفاح فنرى الشعر يسجل هذا الطور الجديد وتنقلب ألحان الشكوى والانين الى أنغام بهجة وفرح .

ونبدأ بالكلام على قطعة لمصطفى الحبيب بحرى نشرت بعنوان « أغنية كانت حزينة » يتحدث فيها الشاعر عن حالة الحزن والروع التى كانت تسيطر على النفوس حيث كان الظلام مخيما فى كل صدر والخوف يملأ كل قلب ـ وحيث كانت عيون الموت تقدح بالشرر وتهدد بالفناء كل طفل وكل شيخ وامرأة وكل من يعشق الحياة والحب والسلام ، وحيث كانت ليالى الموت تحفر فى المدينة، لبنيها ألف ألف قبر ـ وهذا بعض ما جاء فى هاته القطعة :

الكادحون ـ كانوا هنا بالامس أغنية حزينة
متبخرة .. فى كل شبر بالمدينة

---

(9) الفكر السنة الثالثة ص 741
(10) جريدة الاسبوع افريل 1949

الفجـر أشـرق ذات يـوم
والزهـر أودع للتراب قيـوده
والبلبل الغـريد أطلق للحيـاة نشيـده
وغـدا ستبقى الاغنيـة ٠٠ منسابة من كل فـم
أسطـورة تحكـى صداهـا كـل أم
من هنا هنا كانت عيون الموت تلتهم المدينة
من ها هنا كانت لنا بالامس أغنيـة حزينـة (II)

ويسجل محمد العروسى المطوى فى قطعة « استسلام الجبـار » نفسيـة المستعمر المتغطرس المتجبر الذى يسمع اصداء فى قمم الجبال تدوى كما تدوى الرعود القاصفة فيتساءل بكل احتقار :

مـا بالهـا ؟ مـاذا تـريـد ؟
أتـريـد خبـزا للبطـون
أحشـوا البطـون ببعجهـا
جمـع من البشـر الحقـير
يتضورون من السغب. أف لهم

ويتحفز الجمـع الحقـير صوب الجبال وتتجاوب القمـم مع السهول وتـزداد الضوضاء والصياح وتتتابع رسل الفداء وكتائب التحرير واذا الجمع الحقير عند أصحاب الطغيان جمـع قوى :

جمع تكتـل للحياة ٠٠ رغم الجبابرة القساة ٠٠٠
وتتصارع القوتان قوة الايمان وقوة الظلم العنيد ٠

ويتقابل الطاغوت مع الجمع الحقير وتنتهى المعركة بالظفر لاصحاب الايمان ، وبالهزيمة لاصحاب التيه والكبرياء :

فـــاذا حـديـد الظـالمـين   فى مصهر الايمان يعلوه الفنـا
واذا جنـــود الطـــاغيـــة   كـالـوهـم بـدده اليقـين

واذا أشلاء الهزيمة ، أشلاء أولئك الجنود القساة تعود للجبار جثثا مجندلة وأخرى هائمة ثم يكون الاستسلام وهو عنوان الجزء الاخير من القطعة ، وهاك مـا جـاء فيـــه :

(II) الفكر السنة الرابعة ص 960

وتلفت الجبار يستجلى الخبر
ماذا جرى ؟.. انى أكذب ما أرى
ويعود للجبار رشد العاجزين
ويمدها بيضاء .. رمزا للسلام
ويغمغم المهزوم مرتعش الشفاه
ليسوا جياع ... ليسوا كما كنا نقول
ليسوا ضعاف ... هم اقوياء ... (12)

أما مصطفى الحبيب بحرى فهو ينعى للمستعمرين موت آلههم اله الحرب والدمار الذى يعبدونه والذى يرمون به الشعوب كلما هبت مطالبة بحقها فى الحياة لا يثنيهم عن ذلك صراخ البائسين ولا شكوى اليتامى او نوح الارامل – يقول فى قطعة « مصرع اله » :

ومات الهك يا سيدى ... الهك أنت الذى تعبد
وقد أثخنته جراح الشعوب ... وداسته – حقدا – نعال العبيد

لقد كان المستعمر آلها صغيرا لذلك الآله الكبير آله الحرب والدمار .. هكذا كان عند الشعوب المستضعفة ، كان آلها بيده الحياة والموت والهدم والبناء . وكان يسخر من انات الشعوب ويستهزىء من آمالها وآلامها :

أجل سيدى كنت عندى آلها ... آلها صغيرا كما قلت لى
تميت وتحيى كما طاب لك ... وتبنى وتهدم كيف تشاء
وتسخر من خشعة المستجير ... ومن فزع الام يوم النفير
ومن لوعة الطفل يبكى أباه

ولكن مرت السنون .. وبعثت الشعوب من مرقدها ووعت وضعيتها وادركت قوتها . فاذا الآله المدمر المهلك يحتضر ويموت . وقد رأى الشاعر المستعمر يوم احتضاره آلهه الكبير حين سال الدم من عارضيه وشفتيه وراحتيه ومن صدره الكافر الحاقد رآه وهو يصلى على جسمه :

رأيتك والحزى فى مقلتيك ... تصلى على جسمه البارد
وحيدا هناك كعبد حقير

فودع حياتك يا سيدى
وألق السلاح على العبد
وعانق الهك يوم اللقا
بوادى الجحيم لتحيى الشعوب

(12) الفكر السنة الاولى العدد 4 ص 6

ويبـزغ فى الافـق فجـر الاخــاء

ويبعث للكون روح الحياة (13)

ونختم هذا الباب بتلخيص قصيد مطول لمنـور صمـادح بعنوان « الجهـاد المظفـر » نشر فى العدد التاسع من مجلة الفـكر لسنـة 1957 استعرض فيه بأسلوب لطيف قصة النضال التونسي كما يرويها له فتى من المقاومين يتحدث عـن نفســـه ·

لقد ودع هذا الفتى أهله وخيمته السوداء وأمه الحنون وزوجته الـوفية ، وابنه واحبابه وحقله الخصيب · والمرعى والشياه · وتقدمت نحوه امه واخذت تتوسل اليه بالأمـومة ألا يذهب وتسأله فى روع لماذا يتركهم هكذا ويذهب وهل هو راجع اليهم ؟··· فيرد الفتى :

« فأجبتها أمـاه لا تخشى فقـد آتى غــدا

فلقد دعت ام الجميع لخوض معركة الفـدا

وأهـاب بى صوت الضمير الى مقاومة العـدا

من للحمى ؟· والظلم ينشر فى جوانبه الردى

من للحمى ؟· والاجنبى يعيش فيـه السيدا

ويودع الفتى اهله بعد ان يطلب منهم الكف عن البكاء ويخرج مصمما على النضال والمقاومة ، تدور فى رأسه عـديد الصور الكريهـة للمظالم والبطش وتلويث شرف الوطن :

ورفعت رشاشتى وفى أذنى نداءات الخلـود

والبطش والشرف الملطخ ، والتنكر للعهود

والفتك بالنسوان والاطفال فى أمن المهـود

صور كريهات تقوى البأس فى عزمى الشديد

ثم مضى واسع الخطو طاويا الفدافد والنجود ، قاصدا أحد الكهوف المنيعة التى يحف بها الجبل المنيف · وهناك التقى بالابطال الأباة الشجعان · كان الجمع متأهبين لشن الغارة متوثبين للمعركة تحت قيادة شهم ذى رأى حصيف فنظم فرقهم صفوفا ونشر جمعهم شمالا وجنوبا فتوزعوا فى الصحارى والجبال والغابات والادغال وانبروا للجهاد المقدس مستعذبين الموت فى سبيل الثـأر للشرف المداس ، والكرامة المهانة · وتوالت الهجمات واشتد الصراع · وكان الجو مربد الجوانب مكفهر الآفـاق · وكانت الشظايا تتطاير والرصاص يمزق الفضاء · وفى احتدام المعركة تنطلق رصاصة من رصاص العدو فتصيب رفيقا

(13) الفكر السنة الثانية ص 699

للفتى المجاهد ٠ فيسرع لحمله مضرجا بدمائه ولكنه هو الأخر يصاب برصاصة طائشة تخترق جلده فيجرى مسرعا ويختفى وراء الربوة وتمتزج دماؤه بدماء الجريح الذى لا يلبث حتى يقضى نحبه فيرتل على مسمعه « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امــواتا ٠» ويواريه التراب ٠ ولكن صورة هذا الشهيد تظل عالقة بذهنه ، وأحاديثه وحماسه فى الجهاد لا تبرح مخيلته ٠

مازال رغم المــوت فى عينى وفى قلبى أراه
واعيه يهتف بيننا يا للفضيحة ٠٠٠ وا أسفاه
أنسيتم انــزلاج كما عفــرت فيــه الجبـــاه
أنسيتم افــريل لمـا اظهــر البــاغى عــداه
وانقض يفتك بالجموع يسوقهم مثل الشياه
السجن والموت الزؤام لكل من طلب الحيــاة
افــريل لا التاريــخ ينســاه ولا تنسى رؤاه

ويستمر الفتى راويا للشاعر مواقف رفيقه الشهيد وخطبه الحماسية فى المقاومين وهى التى كان يعدد فيها المحن التى مر بها الشعب فى حياته النضالية مثل مأساة الملك الشهيد وكارثــة تازركة ٠ وثورة الشباب لتحرير الــوطن ورجوع المجاهد الاكبر ، وما عقب ذلك من الاحداث ٠ ثم نزول الفتى من الجبال عزيزا كريما يدفعه الشوق الى خيمته وحقله ، والى ملاقاة ابنه واهله :

ونزلت من قمم الجبال وهامتى فى المشترى
اعتــز بالعلــم المخضب ، بالنجيع الاحمــر
والشوق يدفعنى الى الحقــل الخصيب الاخضر
وحليلتى، والأم والطفــل الصغير الانـــور
والخيمة السوداء والاغنــام والكلب الجرى
نشوان بالنصــر المحقــق بالجهــاد الاصغــر
ويحثنى أمــل الحيــاة الى الجهــاد الاكبر ٠٠

وكان هذا الحديث بين الفتى والشاعــر فى العيد الاول للاستقلال فتخيل الشاعر روحه تعرج الى السماء حيث تلتقى بالشهداء الابرار وتــراهم :

يحيــون لاستقــلالنــا افــراحــه فى عليين
فى حضرة الملا الرفيع ، جــوار رب العالمين

الا ان صوت محدثه أرجعه الى الارض فرأى فيها هى الاخرى افراحا :

ووجدتنى فى الارض نشوان الخطى أتــرنم
والنور نور النصر يجتاح الجبــاه ٠٠ ويلهم

هذه خلاصة ومختارات من هذا القصيد الذى تجاوز المائة بيت وفى رأيى انه قصيد لطيف احتوى ابياتا كثيرة على جانب من الجمال والبساطة غير ان المنهج التقريرى الذى اختاره الشاعر وخلو القصيد من الصور الشعرية والتعبيرات الشخصية جعله ذا قيمة فنية محدودة ـ ولاشك ان فضل الشاعر كان عظيما حين احتفظ بالرنة الشعرية الموزونة • على طول القصيد فى الوقت الذى زهد فيه عنها كثيرون ممن نظموا فى مثل هاته الاغراض •

نعتذر عن عدم ايراد الاشعار المستشهد بها كما نشرها اصحابها من حيث الشكل ووضع الابيات لضيق المجال ـ وقد حرصنا على الاحالة الى مواضع نشرها ـ

محمد الحليوى

جلنار

بقلم : نور الدين صمود

« أهدت الي ديوانا عنوانه جلنار لميشال طراد باللهجة اللبنانية وكان اسمها جلنار فأهديتها هذه النبضات...

وسرت رعشة ابتهاج وعطر هب في غامر من الامواج
هسهسات الحلي في رقصة البدو ونفح من عاطر الديباج
كرنين البلور ينبعث الصوت كلمع من السنى وهاج

❀ ❀ ❀

وعلى الثغر بسمة تتلالا مثلما عانق الضيا ناظريها
سبح الطهر في الشفاه وصلت نفحات الاوراد في وجنتيها
الربيع الربيع عطر آفاقي وأغفى. وهاج شوقي اليها

❀ ❀ ❀

غمر الله كفه في العشايا فازدهى الافق من سنى البيلسان
وأشاع السكوت في النغمة الصماء... في الضوء... في الشذى الارجواني
أنا من غمرة السنى في ضلال فتيقظ يا تائها في الحنان

❀ ❀ ❀

وتهادى النسرين والنرجس الهيمان عبر الاشذاء في بحر ورد
فانثري أنثى العطور فعمري روضة عبر عطرك الممتد
رشها الله من سنى الشفق المعطار وانساب بين ورد ورند

كيف لي ان اظل في روض عمري ابـد الدهـر دون ان نـتـلاقى ؟!
كيف لي ان اظل ؟ قولي فعمري ظـمأ محرق . الا نـتسـاقى ؟!
ظمىء الياسمين في حقل روحي أفيبقـى على المدى مشتـاقا ؟!

* * *

غـام في عين ذكـرياتي الحيارى لون عـينيك .. يـا نوافير نـور
من راى في الضحى مـلاكين رشا طرق القلـب بالسنى والعبيـر ؟!
اين لـون الشـذى وسحـر اغانيه وطعـم الافـراح عبـر السرور ؟!

* * *

"جلنار" اذكري لقلبي دعـاء هـو كالـزهـر في ربى اوطانـك
انت في بعـدك الحـنين سراب لسـت احظى بنـفحة من حنانـك
انا في موطني غـريـب كئيب فاذكريني عـلى ذرى (لبنـانـك)

نور الدين صمود

الفكر
مجلة ثقافية
تصدر شهـريـا
مـؤسسهـا ومـديرهـا
محمـد مـزالي
المراسلات ـ صندوق البريد 556 تونس
الحساب الجارى بالبريد 337.69 تونس

اديـــــب تونـــــسي

بقلم الهادى العامرى

كانت تونس في اوائل القرن الثالث عشر من الهجرة لاتزال تعاني بقايا فوضى الادارة التركية وهوج الجيش التركي الذي طمس المعالم وطوى بساط مجد زاهرطالما رفلت في حلله الرائعة تونس منذ العصر الحفصي الزاهي ولعل حمودة باشا الحسيني المتوفي سنة 1229 هـ. اول ملك تونسي قضى على اماني الاتراك وسفه احلامهم في الاستئثار بخيرات البلاد والعبث بنظامها ومقوماتها وامكانياتها وقد عاضده على ذلك التونسيون وجاهدوا معه جهاد الابطال للنهوض من الكبوة التي وقعوا فيها والمصائب التي تعرضوا لها من جراء ذلك الاحتلال البغيض الذي اثر أسوأ الاثر على سير البلاد واتجاهاتها في سائر الميادين ولا سيما الميدان الثقافي الذي رجعت فيه تونس الى الوراء واقفرت ربوعها من العلماء والادباء ولم يبق فيها من رجال العلم والادب الا افراد قلائل بل لم يبق للعربية وادبها الا اثر دارس وطامس. وعلى العكس من ذلك فقد كان المغرب بمعزل عن هذه الافات التي تعرضت لها تونس والجزائر وطرابلس بفضل السعديين الذين كانوا شجى في حلوق الاتراك وصخرة صماء امام امتدادهم الى ان انبلج صبح الدولة العلوية الحالية بالمغرب وواصل رجالها الكفاح و لم يسمحوا للاتراك بالتوغل في البلاد المغربية بل حالوا بينهم وبين امانيهم في الهيمنة على هذا البلد الامين وبذلك سلمت الاداب العربية والثقافة الاسلامية ردحا من الزمن من التأثيرات السيئة والعوامل الفتاكة العابثة وقد حدثنا عن هذه الظاهرة عالم تونسي ضليع وهو الاستاذ بيرم الخامس في كتابه الصفوة في اعتدال واتزان واطمئنان قائلا : ولعمري ان صناعة الانشاء في الدول باللغة العربية كادت الان ان تكون مقصورة على دولة مراكش واما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا وكادت كتابتهم ان تخرج عن الاسلوب العربي بل صاروا لا يتحاشون عن اللحن والكلمات البربرية بخلاف كتاب المغرب وهذا ديدنهم من قديم اه والواقع ان تونس ظلت في هاته الفترة خاضعة لاساليب العجمة حتى ان اوامر البايات الاولين الى عهد حمودة باشا الحسيني كادت ان تحرر باللسان العامي الدارج واستمرت الحال على ذلك الى اواخر منتصف القرن الثالث عشر حيث ظهر

الكتاب التونسيون ينفضون غبار الخمول ويصقلون ماران من الصدإ على اللغة الفصحى فاضطر المشير الاول احمد باي الى نبذ اللغة التركية من دواوين الحكومة وخاطب الدولة العثمانية باللسان العربي المبين متعللا بأنه لا يوقع على رسائل رسمية محبرة بلغة يجهل معانيها وخصائصها واساليبها وبذلك تخلصت الدولة التونسية من كل ما هو تركي في سائر المظاهر ونفقت سوق الادب العربي من جديد بتونس وظهرت حلله الانيقة الزاهية يحوك نسيجها افذاذ من الادباء التونسيين الممتازين كالباجي المسعودي وابن ابي الضياف وما اليهما من فطاحل الادباء. ولعل اول سفير تونسي واديب رفع راية الادب التونسي في الخارج الاستاذ ابراهيم الرياحي وقد كان من كبار علماء تونس على عهد حمودة باشا الحسيني والذي اوفده بمهمة على سلطان المغرب الذائع الصيت بالخلال الحميدة والخصال الانسانية سليمان بن محمد من اعيان ملوك الدولة العلوية الحالية بالمغرب قدم على السلطان مولاي سليمان بفاس فاهتز هذا السلطان لمقدمه واحتفل بطلبه ايما احتفاء ، واجابه اليه ولم يسع العالم والاديب التونسي الا تطويق جيد السلطان بقلائد الادب التونسي والاشادة بصنيعه وتخليد ذكراه بالمغرب وتونس بقصائد رنانة فاتنة منها قصيده الذي يقول فيه:

ان عز من خير الانام مزار   فلنا بزورة نجله استبشار

منها :

هذا الخليفة وابن اكرم مرسل   وسليل من تمطى له الاكوار
وخلاصة الاشراف والخلفاء من   بيت البتول وحبذا الاطهار
واجل وارث ملك اسماعيل من   بطل شذى اخباره معطار
واعز سلطان واشرف مالك   شرفت بملك يمينه الاحرار
واحق من تحت السماء بان يرى   ملك البسيطة والورى انصار
لكن اذا كل القلوب تحبه   فلغيره الاجسام وهي نفار
هذا سليمان الرضى بن محمد   من اشرقت بجبينه الانوار
هذا الذي رد الخلافة غضة   وسما به للمسلمين منار
واعز دين الله فهو بشكره   في ايكها تترنم الاطيار

ومن الطريف ان نذكر اللطيفة التالية التي جرت في سفارة الاستاذ الرياحي الذي كان يحمل رسالة من البلاط الحسيني في العهود التي ضعفت فيها اساليب العربية وتمرس الكتاب التونسيون بالاساليب العامية المنحطة في اوائل الدولة الحسينية : اذ صادف ان كتب الكاتب التونسي على لسان اميره العبارة العامية التالية (تبق تأذن بخروج القمح الخ ولم تكد تقع عين وزير

القلم على تلكم العبارة الفجة حتى تعجب واستاء وامتلا غيظا واشتد حنقه وقال أيخاطب السلطان بهذا الاسلوب المنافي للاداب ؟ وقرر استدعاء السفير التونسي للجواب عن هذه الجملة الجافية النائية فقال الاستاذ السفير لماذا تنكرون هذه الجملة وتتبرمون من هذا التعبير ؟ انها عبارة عربية محضة وهي جملة دعائية في صورة الخبر ايذانا بتحقيق الاجابة ببقاء السلطان وما بعدها تقتضيه صناعة العربية وقوانينها فهي جملة حالية ايذانا بان بقاءه يكون دائما مشمولا بعلو الكعب الذي تحتاج اليه المسلمون من الاقطار فيكون دائم الاذن بما ينفعهم وختم جوابه بما افحم به وزير القلم قائلا وعلى فرض التسليم بلحن العبارة هل يسوغ لسلطان من المسلمين ان لا يرحم عصابة اسلامية ! ويتركهم يهلكون جوعا لسوء عبارة من جهل الكاتب... وقرائن الحال حافة بحسن المقصد على انها لها محل وجيه الى آخره . وبذلك زال سوء التفاهم بفضل فطانة السفير التونسي وبراعته وقوة عارضته واب الى وطنه يحمل جميع رغائب البلاد ويوطد دعائم الاخوة والصداقة على امتن عماد ولا يسعنا ونحن نكتب للعبرة والتاريخ والذكرى الان ننوه بالعبقرية التونسية في الاضطلاع بالمهام العظام منذ القديم خصوصا في مجال فضحت فيه رجال ردد صدى فضائحهم التاريخ وما زلت اذكر في هذا الصدد حادثة السلطان صلاح الدين الايوبي والمنصور الموحدي في القرن السادس من الهجرة وذلك ان السلطان صلاح الدين ضاق بالصليبيين ذرعا عندما اشتدت وطأة هجماتهم على الثغور الشامية فاراد ان يستنجد بالمنصور عاهل الموحدين بالمغرب على كبح جماح اولئك العتاة الطغاة ليشغلهم عنه ويفل من حدتهم فارسل الى المنصور اديب دولته وعالمها شمس الدين بن منقذ واصحبه رسالة لم يخاطبه فيها (بامير المؤمنين) فراى المنصور في ذلك غضاضة منه ورفض طلب صلاح الدين وابى ان يجيبه الى رغبته ووقف السفير الاديب موقف العاجز في الميدان وعوض ان يلم الشعث ويرأب الصدع ويعتذر اعرض عن ذلك وانشا قصيدة يمدح فيها المنصور وسماه فيها بأمير المؤمنين جاء فيها :

ساشكر بحرا ذا عباب قطعته	الى بحر جود ما لاخراه ساحل
الى معدن التقوى الى كعبة الندى	الى من سمت بالذكر منه الاوائل
اليك امير المؤمنين ولم تزل	الى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت اليك البر والبحر موقنا	بان نداك الغمر بالنجح كافل

حزت بقصديك العلا فبلغتهـــا　　　وادني عطايـاك العـــلى والفـــواضلو
فـلا زلت للعليـاء والجـود بـانيـا　　　تبلغـك الامـــال مـا انـت آمـل

اهتز المنصور الموحدي للقصيد وقال للسفير الاديب اننا نجيزك على قصيدك لفضلك ولبيتك ؟ وهكذا ارجع السفير يتعثر في اخفاقه بدون جدوى وبضدها تتميز الاشياء قال صاحب النفح مانصه : وعاد ابن منقذ من هذه الرسالة سنة 588 هـ. بغير فائدة .. وبعث معه ا أي المنصور الموحدي هدية حقيرة : واما ابن منقذ فانه احسن اليه واغناه لا لاجل صلاح الدين بل لبيته وفضله، وما وقع من يعقوب (المنصور) في صلاح الدين انما هو لاجل انه لم يوفه حقه في الخطاب الخ.

كتب وردت الى المجلة

- وصية في كتـاب : **بقلم خليل رامز سركيس**
- ايـــام السماء : **بقلم خليل رامـز سركيس**
(منشورات الندوة بيروت اللبنانية)
- الاستقـلاليـة : **بقلم عبد الكـريم غـــلاب**
(المغرب الاقصى)

لن التقي بها

قصة : بقلم رشيد القالي

كان راكبا دراجته « ذات المحرك »، و كانت تنهب به الارض بسرعة أدهشته : . و أبت يده أن ترأف بالمنبه رغم الاخطار المتوقعة... أما الريح فكانت تصفع وجهه بشدة الى درجة أنه يغمض عينيه.. وبقيت الدراجة تنهب به الارض حتى ألفى نفسه يسير بسرعة جنونية في طريق ملتفة بأشجار عالية، متعانقة.. و شاهد الاوراق الصفراء تتناثر ملتوية، ملتمعة في طريقه. و أحس - و قتها فحسب - أنه في فصل الخريف...

و تعجب من لمعان هذه الاوراق الصفراء : تعجب لانها اسلمت للفناء وهي غير ذاوية،.. و تذكر أن هذه الاشجار من النوع الذي يحتفظ بخضرته طيلة فصول السنة... وبدت له هذه الاوراق متمردة ، فيها من معاني البطولة..، لقد منحتها أمها رحيقها و لكنها اختارت الفناء رغم توفر أسباب العيش الرتيب...

و ابتسم اذ أعادت هذه المشاهد الى ذاكرته تلك الفتاة التي راقصها البارحة في احدى الحفلات الخاصة..، ابتسم لان هذا اليوم الخريفي سيجعلها تتذكر بلدها و شدة البرد هناك...

و كان لا يدرى هل أصاب المرمى عندما ابتسم لها..، و لكنه لم يفكر و هو يقوم بهذه الفعلة بأن أعماله منافيه « للاخلاق » رغم علمه - منذ البدء - أنها متزوجة...

نعم لم يفكر في شيء حتى أنه أحس أن وحدته الهائلة قد تحولت الى قابليه جوعى، تتوهج في أعماقه وتبحث في تعطش عن قلب مرهف ، عاصف الخلجات ، تسكن له...

❋ ❋ ❋

... و أحس بسخافة سلوكه فصمت منقادا لهواجس الحرمان تغازل خاطره ليختلق احداثا و قصصا كثيرة . قصصا تراقص مخيلته و تتلاعب بأحاسيسه ثم تتلاشى متبعثرة في زوايا نفسه .. تتلاشى ليبأس فيسأم وجوده و يلفه صمت رهيب...

قال لزميله انه تعرف بإحداهن ... وانها جميلة و.. و ... ثم صمت فجأة .

نعم صمت فجأة لانه تذكر انه قال لزميله مثل هذه العبارات الجوفاء مرارا بنفس الحرارة...

و احس أنه قضى ايام حياته كلها كاذبا وأن مدلولات الاشياء حوله من جنس هذا الكذب وليست لها وحدة ذاتية قارة تبرز نوعها الاصيل في صفته الازلية، و الابدية...

لقد قال مرارا أنه أحب و لا يمكن له - على الاقل - أن يحب بمثل هذا الحب «العنيف» ... و لكنه يعود ، هو نفسه، ليناقض كل هذا بنفس الايمان والحرارة اللذين أحب بهما...

* * *

... و سألها هل تحبه؟ فهمست له بأن يصمت ،.. و سكن وهو يتأمل هـذا التناسق الذى جانس هيكل هذه المرأة ... سكن و هو يتأمل المرأة في روعـة انذهالها... و أخذت له يده و قالت : انک شرقي العواطف ... فابتسم.

كان يفكر ، و هو يغادرها، في أمر القصة التي ستكتنف حياة هذه المـرأة، نعم قصة لم تعشها بعد، و لا تعرفها أو تعرف عنها شيئا و انما ، هي تستعر فـي أحشائها... قصة ستولد ، لا محالة، ستولد لتبصق بها في تيار اللامفر..، اللامفر حيث الهزة المنفعلة، و الوقدة العارمة...

و ألفى نفسه يفكر في الانانية و في اشياء أخرى من هذا الضرب ، و تخيـل انه أحد المقربين لهذا الزوج ... هذا الزوج الذى سيعيش دراما مؤلمة، لا محالة دراما ستحول كل المفاهيم التي اكتسبها من الحياة والوجود. و المرأة الى مدلولات عجيبة ،.. نعم الى مدلولات عجيبة وسيجد لها منطقا... و هكذا أخذ يحكم على هذه المرأة بكل يسر و سهولة و تأكيد قائلا: انها المرأة..، هي هي عبر التاريخ...

قال لزميله : انها آلام هائلة تلك التي تغمرنا اذا لم نحسن الاختيار فنخطىء المرمى ؛.. تلك الالام المطاردةالتي نحس بها أمام الفشل ،.. فشل معركـة التلاؤم والانسجام و.. التفاهم. قال له : ذلـك ليس لاحساسنا بخطئنـا أو لتصورنا الهزيمة و انما لشعورنا أن الطرف المقابل هو وحده ا الجاني...

* * *

...كان يشاهد جمعا من الرجال و النساء في المحفل..، وكانت الموسيقى مـن النوع الهادىء تهدهد الاحاسيس في خلجات رقيقة .. وكان بعضهم يرقـص و بعضهم الاخر يتحدث أو يغازل..، وكانت فاتنة المحفل في مقرها مع زمرة من جميلات المرقص،.. وكانت الانظار تنصب نحوها في تسبيح خشوعي

بائس..، فالكل يشتهيها بعاطفة فوضوية،.. يشتهيها لان مثل هذه المجالس لا يرجع أمر مواقفها الى مشاكل غرامية أو سوابق عاطفية وانما الى انتصارات مؤقتة ومفاجآت طارئة ليس من ورائها جدوى.. أو مفر...

...كان يراقصها وكانت ملتصقة به..، وكان يشاهد « الازواج » تتهادى في رفق تحت أشعة النور الكهربائي الباهتة..، وكانت الليلة حافلة .. حافلة بكل معاني اللذة والنشوة...

و نسي أنه يراقصها للمرة الثانية .. و طارحها أشياء كثيرة وكانت ساكنة على كتفه،.. و في لحظة هدوء هافت أمسكت له يده وقادته الى مقعد..

قالت له : لقد أخذت ألاعب هذا الصباح أختي الصغيرة وكانت سعيدة الى أقصى حد او هكذا تبدو... و لكن سذاجة حركاتها و عفويتها و براءتها جعلتني أعتقد بأني اذا ما أردت أن أكون سعيدةفلا بد أنالتجيء الى الوهم..، اى أن لا أفكر. لان الطفلة التي بدت لي سعيدة لم تفكر في السعادة أو هل هي سعيدة أم لا، أو لماذا هي هكذا... فهي ساذجة، فقاطعها : ولكن في سذاجتها وسعادتها ضربا من الشيء العميق، العميق الى درجة أنه لا يدرك أو يفهم « وانما يعيه الفرد في قرارة ذاته ». أما أنت فإنك لا تستطيعين أن تكوني مثل هذه الطفلة !... قالت : لماذا؟... و لكنه لا يدري...

التفت اليها فابتسمت له، فأشار عليها بأن تستمع الى اللحن الدافيء الذي ترسله الاسطوانة.. و لكنها أخذت ترمقه في صمت و شرود... فهي تعلم بأنه يريدها، يريدها فحسب ولكنها تعلم ايضا أن هذا لايغير شيئا... وغالبتها دموعها وهي تستحلفه بأن لن يقابلها أو يحاول لقاءها...

❀ ❀ ❀

...كانت نسيمات الفجر تتخلل جسمه وكانت دراجته تطوى به الارض طيا و نسيها و هو ينظر الى أشعة النور المنبعثة من الاعمدة المنتصبة على حافتي الطريق..، نعم نسيها...

و لما استلقى على فراشه كان يتمتم : « سوف أنساها كما انسى كل شيء في حياتي : » لانه كان في قرارة نفسه مؤمنا بأنه لا يمكن له أن يكون أحد أبطال قصتها... قصتها الوجودية.

مع الجاحظ السياسي

بقلم : احمد خالد

ان الجاحظ فضلا عن كونه أديبا قبل كل شيء ملاحظ سياسي وناشط معا ، فمتى عدت الى بعض المصادر انتاريخية التي تشير الى أبي عثمان ، ومتى نظرت كذلك في كتب الأدب القديمة رأيت أن الاختلاف في شان صاحبنا شديد ، وأن أهل الادب ومن أعتنى به من المؤرخين في أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فئتان : فمن مناصر يراه ذائدا عن العرب بل جاعلهم فوق الاجناس ، ويراه مدافعا عن السلطة المركزية ، سلطة بني العباس يومئذ وهم من بني هاشم ؛ ومن عائب يروم الغض منه كابن قتيبة القائل عنه في « تأويل مختلف الحديث » : « ويبلغ به الاقتدار الى أن يعمل الشيء ونقيضه ويحتج بفضل السودان على البيضان ٠ ٠ ٠ ويعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين » ٠ وهذا المسعودي من زمرة العائبين يقول في « مروج الذهب » عن المعتزلة وعن الجاحظ في شأن الشعوبية : « وقد زعم جماعة من المتكلمين منهم ضرار بن عمرو وثمامة بن أشرس وعمرو بن عثمان الجاحظ أن النبط خير من العرب » ٠

فأنت ترى ان مشكل الشعوبية عند الجاحظ يبقى غامضا ما لم تعد الى مؤلفات صاحبنا بالدرس والتمحيص اذ ان مؤرخي الادب المعاصرين اما خبطوا في ذلك خبط عشواء واما لم يستقصوا الدرس العلمي الصحيح للبت في شأن الشعوبية عند الجاحظ ٠

أجل قد يذهب بك التسرع الى الجزم بان المسعودي وابن قتيبة قد اصابا عندما رميا الجاحظ بالحط من شأن العرب وبتفضيل غيرهم من الامم عليهم ، وتقول : هذه كتبه ورسائله تدل على ذلك ، وحسبك دليلا على شعوبيته وتعصبه على العرب رسالته « فضل السودان على البيضان » (1) وفيها يذكر أبو عثمان مناقب السودان ومفاخرهم على البيضان عامة وعلى العرب خاصة ويكاد لا يذكر للعرب فضلا ٠ وقد تجد مبررا لموقف اديبنا هذا ولموقفك انت منه فيما حملت لنا كتب الأدب من أخبار تشير الى أن الجاحظ مولى كنانة

(1) انظر فان فلوتن 1903 G. Van Vloten

وأنه زنجي الاصل يجرى فى شرايينه دم السودان وأراك تلح على بالعود الى كتاب « فخر السودان على البيضان » وتشير على بامعان النظر فى قول الجاحظ على لسان الزنج : « وقال النبى صلعم بعثت الى الأحمر والاسود وقد علمت أنه لا يقال للزنج والحبشة والنوبة بيض ولا حمر ، وليس لهم اسمر الا السود ، وقد علمنا ان الله عز وجل بعث بنبيه (الى بنى آدم) كافة والى العرب والعجم جميعا ، فاذا قال بعثت الى الاحمر والاسود ولسنا عنده حمرا ولا بيضا وقد بعث الينا فانما عنانا بقوله الاسود ولا يخرج الناس من هذين الاسمين فان كانت العرب من الاحمر فقد دخلت فى عداد الروم والصقالبة وفارس وخراسان ، وان كانت من السود فقد اشتق لها هذا الاسم من اسمنا وانما قيل لهم وهم أدم وسمر وسود حين دخلوا معنا فى جملتنا كما تجعل العرب الاناث من الذكور ذكورا» (2)٠فانظر اليه كيف ارجع جميع الاجناس الى الحمر والسود فطمس بذلك الجنس العربى وادخلهم فى عداد الروم والصقالبة وفارس وخراسان ان كانوا من الحمر ، وفى السود ان كانوا من السود ، وخص الزنج بلقب « السود » وافردهم به ، وجمع الاجناس الباقية من عرب وروم وعجم وغيرهم فى لقب واحد « الحمر » وكان الجاحظ ، بهذه العملية ينتصر على لسان الزنج للسودان على البيضان عامة وعلى العرب خاصة ، ثم انه ذهب الى ابعد من ذلك حين ادخل العرب فى جملة السودان وشبه الزنج بالذكور والعرب بالاناث ، وللذكر عند العرب شان عظيم ، وقال : « وانما قيل لهم(للعرب) وهم ادم وسمر سود حين دخلوا معنا فى جملتنا كما تجعل العرب الاناث من الذكور ذكورا » ٠

ويستمر الزنج فى الافتخار وتقديم السودان على البيضان وعلى العرب خاصة فى المناقب وحتى فى الدعوة الاسلامية ؛ فاسمع اليهم يقولون :

« فان كان اسم السود وقع علينا فنحن السودان الخلص والعرب أشباه الخلص فنحن المقدمون فى الدعوة » ص 76 ٠

ويفتخر السودان بتقدمهم فىالدعوة الاسلامية كما يفتخرون بوفرة عددهم، ويفتخرون بجمالهم وكمالهم على حد قوله : « ولو رايتموهم (اى السودان) نسيتم الجمال والكمال » كما يفتخرون بشيمهم الفكرية والصناعية ٠ قال – بعد ان اعتبر الهند من السودان – : « وتعلمون ما فى الهند من الحساب وعلم النجوم واسرار الطب والخرط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة » ص 77

(2) ط ٠ فان فلوتن ص 75

وقال الجاحظ في موطن آخر على لسان الزنج : « ولنا بعد معرفة بالتفلسف والنظر ونحن اثقف الناس ولنا في الاسرار حجة » ・ (ص 81 ـ 82)

ومن طريف ملاحظاته اشارته الى حذق اهل السند ـ وقد اعتبرهم من السودان ـ الصيرفة ، وتفوقهم على غيرهم من الشعوب في تلك المهنة ، قال : « ومنمفاخرهم ان الصيارفة لايولون اكيستهم وبيوت صروفهم الا السند واولاد السندلانهم وجدوهم انفذ فيامور الصرف واحفظ وآمن ولايكاداحدان يجدصاحب كيس صيرفي ومفاتيحه ابن رومي ولا ابن خراساني » ・ ص (85) ولقد بلغ من تبرك التجار بأهل السند لبراعتهم في امور الصرف ان « صيارفة البصرة وبنادرة البربهارات لما رأوا ما كسب « فرج ابو روح السندي » لمولاه من المال والارضين ، اشترى كل امرىء منهم غلاما سنديا طمعا فيما كسب ابو روح لمولاه » ・ ص 85

ولا نريد ذكر جملة مفاخر السودان ، ففيما ذكرنا شاهد على موقفهم الدفاعي ، ودليل على شعوبيتهم ・ وكان الجاحظ يرتاح لحججهم اذا لا يحاول دحضها ولا فرع برهان ببرهان ، فهو لا يقابل بين مفاخر الزنج ومفاخر العرب حتى يظهر في مظهر الواصف المتجرد ・

لكن لا تظن ان الجاحظ يرتاح لمفاخر السودان على البيضان ويوافقهم في ثلب العرب عند ما يعرض عن الرد عليهم ودحض حججهم ・ وتبدو لك الرسالة كانها ناشئة عن رغبة فيها اذ يقول الجاحظ مخاطبا من اهدى اليه كتابه : «انك قرات كتابي في محاكمة الصرحاء للهجناء ورد الهجناء وجواب اخوال الهجناء واني لم اذكر فيه شيئا من مفاخر السودان فقد كتبت لك ما حضرني من مفاخرهم » (ص 57) ・ فهل ان هذه الرسالة حقا من ادب المناسبات كما تبدو في لهجة تقديمها ، ام هذه طريقة تعودها الكتاب في تقديم كتبهم ؟ نحن لا نستطيع الجزم بشيء ، ومهما يكنمنامر فالعصركان عصر نواد ادبية سياسية ، فيها يقع الاخذ والرد ويمتزج الجد والهزل وتثار شتى المشاكل التي تشغل الافكار يومئذ ، وكانت هذه النوادي حوضا منه يغترف الادب والسياسة ، ومن المحتمل ان الحديث كان يدور في تلك المجالس حول السودان والعبيد ، والسودان عددهم كثير ناهيك انهم كانوا في ذلك العصر مضطهدين يجلبون من افريقيا ويعرضون في الاسواق للبيع كما تعرض

البضاعة ، وكانوا يوجدون فى كل دار تقريبا ويسخرون للاعمال الشاقة المنهكة فى مزارع العراق وكان ذلك من بين الاسباب الهامة التى أدت الى قيام ثورة الزنج وتخريب البصرة وتقويض اركان الخلافة العباسية ، فمن المرجح أن يتحدث عن طبقة السودان كما يتحدث عن الطبقات الأخرى ، ومن المحتمل أن يكون حقيقة قد طلب من الجاحظ أن يكتب هذه الرسالة ، ومن المتيقن أن المفاخرات بين الاجناس يومئذ كان أمرا متداولا معروفا اذ يؤلف الجاحظ فى مناقب الاتراك كما يؤلف فى فضل هاشم على عبد شمس ويكتب رسالة فى فضل الموالى واخرى فى مفاخر السودان ٠

ولكن هل كان جادا فى كتابه « فخر السودان على البيضان » ام هازلا ؟ انك لا ريب تشعر من خلال النص أن أبا عثمان يسخر من أحاديث السودان أيما سخرية وتحس احساسا فحسب ، لان صاحبنا لا يلجأ الى التصريح بانه يتهكم عليهم امر التهكم ! والتهكم قد اعتدناه من الجاحظ ذلك المفطور على السخرية والضحك ٠

نعم انك تجد امورا جدية كافتخار السودان « بلقمان الحكيم » « وبمكحول الفقيه » وبفصاحة لغتهم وخفتها على الالسن على حد قولهم : « وليس فى الارض لغة أخف على اللسان من لغتهم » ٠ ص (66)

لكنك الى جانب ذلك تجد حجة من هذا القبيل : « قالوا : وأنتم لا تكادون تعدون ممن ولد له من صلبه مائة ولد ٠ ٠ والزنج لا تستكثر هذا ولا تستعظمه لكثرته فى بلادهم لان الزنجية تلد نحوا من خمسين بطنا فى نحو من خمسين عاما فى كل بطن اثنان فيكون ذلك اكثر من تسعين بطنا لانه يقال ان النساء لا يلدن اذا بلغن الستين »٠ (ص 78) فالحجة من باب الهزل والنكتة لان الافراط فى المدح بوفرة نسل الزنجية باطنه ذم ، وان كان العرب يرون كثرة العدد مجدا ٠ فخبرنى هل رايت امراة تلد تسعين او هل سمعت بذلك ٠ فكانى بالجاحظ يغالطنا وشغف العصر بالمغالطة ، اى بمنطق المغالطة La Sophistique عظيم ، ثم ان السفسطة وليدة الجدل والجدل وليد النوادى ويبدو الولع بالمغالطة فى كل سطر من رسالة « فخر السودان على البيضان » ٠ ويكفيك دليلا على ذلك المثل الذى أوردناه والذى يحاول فيه السودان عن طريق منطق المغالطة ارجاع الجنس العربى بل الاجناس كلها الا عددا ضئيلا ـ الى عنصرهم الزنجى وبذلك يصلون الى نتيجة أنهم هم المقدمون فى الدعوة الاسلامية لا العرب ، وأنهم هم الخلص والعرب أشباه الخلص بل قل الهجناء ٠

وأقرأ لمزيد تيقن من أن الجاحظ يحب النكتة وينشط نها قول السودان « والذى يدل على أن السواد فى وجه آخر مقرون بالشدة وانصرامة والهيج والحركة انتشار الحيات والعقارب وشدة سمومها بالليل ، وهيج السباع واستكلابها بالليل وتحرك الاوجاع وظهور الغيلان هذه كلها بالليل ، قالوا وأشبهنا الليل من هذا الوجه »·(ص 73) والعجب كل العجب من قوم يشبهون انفسهم بالمسك والعنبر وهما اسودان كيف يرضون ان ينعتوا بالسباع فى هيجانها واستكلابها وبالحيات والعقارب السامة التى تشمئز النفس منها وعنها بفر الناس ·

هنا يبدو عبث الجاحظ لان الزنج يظهرون بمظهر الوحوش لا بمظهر البشر ، بل هم « غيلان » ! فكيف يحق لهم الفخر على الاجناس البشرية الأخرى

لقد الح الجاحظ عن قصد فى تشبيه السودان بالسباع وشبههم خاصة بالكلاب ، فانظر الى قوله : « أطيب الأفواه نكهة وأشدها عذوبة وأكثرها ريقا افواه الزنج ، والكلاب من بين السباع اطيب أفواه منها ·» (ص 79) فهل سمعت امر من هذا التهكم واقذع · ما اظن ان الجاحظ فى رسالته ينصف السودان وما أظنه يورد لنا بكل تجرد أقوالهم وحججهم ، فلقد كان الجاحظ يمقتهم ولا يرحمهم ، وأى شىء أدل على ذلك من قوله فى « كتاب الحيوان »: « ويكون مثله (أى مثل الغراب الحالك السواد) من الناس الزنج فانهم شرار الناس وأردأ الخلق تركيبا ومزاجا ، كمن بردت بلاده فلم تطبخه الأرحام أو سخنت فأحرقته الارحام · » (3) فهم شرار خلق الله وكأن سيماء هذا الشر فى وجوههم ، فهم أردأ الخلق تركيبا ومزاجا ، وأقرأ لتزداد تيقنا من بغضه للسودان ، ما جاء فى الجزء الثالث من « الحيوان » ايضا : « ومثل (سود الحمام) من الناس الزنج فان ارحامهم جاوزت حد الانضاج الى الاحراق وشيطت الشمس شعورهم فتقبضت » · (ص 245) ولئن كان الجاحظ يريد العلم والاستنباط وبحث العلل والمسببات ، فان ملاحظاته فى شأن السودان لا تخلو من بغض وتهكم مر · ففى قوله : طبختهم الارحام و« جاوزت حد الانضاج الى الاحراق» تمثيل لعمل مزاجى Physiologique بحادث عادى وهو طبخ الاكل فى القدر وانضاجه على النار ، وفى هذا الاسلوب المجازى استهجان ظاهر · هو حانق فيعبر عن حنقه باحتقار ، وكأنه يستحلى سواد الزنج فى قوله : طبختهم ارحامهم « وجاوزت حد الانضاج الى الاحراق·» لقد كان الجاحظ

(3) الحيوان ، ط ، عبد السلام هارون 1938 ج 2 ص 314

يمقت الزنج وان قيل عنه ان فى شرايينه شيئا من دمهم ، ولعله كان يمقتهم لشعوبيتهم ، ولشىء فى نفسه ٠

وكثرت الشعوبية فى عصر الجاحظ فحوت كتب صاحبنا ورسائله فخرهم على العرب وفخر العرب عليهم ٠ فهذه رسالة فى « مناقب الاتراك وعامة جند الخلافة » (4) تزخر بالامثلة الدالة على نشاط الشعوبية يومئذ٠ لقد شعر الجنس الأجنبى بذاته وأراد أن يفرض نفسه وأن يزاحم العرب فى الحكم ، وبقطع النظر عن نوايا الجاحظ السياسية فى رسالة الاتراك فأنت تسمع حجج الشعوبية على لسان البنوى والتركى والخراسانى والمولى والعربى ٠ ثم عند ما يتعرض الجاحظ نفسه لذكر بنى هاشم أى خلفاء بنى العباس يجرى قلمه بمناصرة الدولة العباسية فى نفس غنائى تطرب له ، فاسمع الى قوله : « وهاشم موضع العذار من خد الفرس والعقد من لبة الكعاب ، وهو الجوهر المكنون والذهب المصفى وموضع المحة من انبيضة والعين فى الراس والروح من البدن وهم الأنف المقدم والسنام الاكوم والطينة البيضاء والدرة الزهراء والروضة الخضراء والذهب الاحمر » فهو يخضع ويركع لبنى العباس فى أسلوب شعرى كما يركع للوزير الفتح بن خاقان ٠

وتفتح رسالة الاتراك فترى الجاحظ يثير على لسان رجل من عامة جلساء الفتح بن خاقان لا يذكر ابو عثمان اسمه وانما يدعوه بالمتهجم والمستبد والمتعسف ، مشكلة سوف يتونى فى كامل الكتاب تفنيدها وهى مشكلة انقسام جند الخلافة الى خمسة اقسام او طوائف متطاحنة غير مؤتلفة : بنوى وخراسانى وتركى ومولى وعربى ٠ فهل عقد هذا المجلس ؟ لا ندرى فمن المحتمل ان يكون ذلك صحيحا ، وقد يكون هذا النوع من التقديم طريقة فى التصنيف ٠ وعلى كل حال فان التفاخر والتساجل والتناحر بين الأجناس كان يكثر فى النوادى يومئذ أو ان أردت فقل انصدى المساجلات كان يصل الى النوادى على الاقل ٠

ومهما يكن من أمر فان الجاحظ عند ما يحدثك عن انقسام جند الخلافة يفيدك ايما افادة ، وتستخلص من رسالته ان الجيش الاسلامى كان غير ملتحم الاجزاء فى عصره لاجل الشعوبية ٠ فلقد كان الجيش العباسى يضم يومئذ اجناسا

(4) « مناقب الاتراك وعامة جند الخلافة » ط فان فلوتن ــ بريل 1903

مختلفة ، وكـان يعتمد منذ فجر دولة بنى العباس عـلى عناصر اجنبية ، من بربر وأكراد ، وديلم ، وزنج وصقالبة وترك جلبوا صغارا كعبيد من أواسط آسيا وشمال البحر الاسود، واتخذ هؤلاء جميعا الجندية مهنة تجلب لهم الرزق(5) فلقد انتشرت الشعوبية حتى عمت الجيش وكان لكل فرقة مناقب وفضائـل تريد أن تدلى بها للفرق الاخرى .

يقول الخراساني : « نحن فتحنا البلاد وقتلنا العباد وأبدنا العدو بكل واد ونحن اهـل هذه الـدولـة واصحاب هذه الدعـوة .» ويفخر الخراسانيون بقوة الاجسام والمناكب العظام والجباه العراض والقصص الغلاظ والسواعـد الطويلة والشوارب المقربة وبطرقهم « السيكولوجية » التهويليـة فى الحرب من دق الطبول والنفخ فى المزامر وحمل الرايات ، كما يفخرون بفضلهم فى قيـام دولـة بنى العباس . ثـم يفخرون بالعقـل الثاقب ، والـرأى الثخين والتبريز فى العلوم ، كما ينزهون نفوسهم عن انتهاك الحرم فيقولون :« ولسنا كجند الشام والمتعرضين للحرم والمنتهكين لكل محرم ونحن ناسُلنا أمانة وفينا عفة .» وترى مختلف الاجناس يفخرون بنفس الشيم ، فيتغنى التركى بالشجاعة فى الحرب وشدة البطش بالعدو والتبريز فى العلوم كمـا يتغنـى بذلك البنوى او الخراسانى ، حتى النسب العربى فانهم اشتركوا فيه جميعـا

وهكذا يبرز لنا الجاحظ السياسى الذى يحاول التوفيق بين عناصر الجند المتنافرة ويرمى الى تدعيم السلطة المركزية ، سلطة بنى العباس الهاشميين ، فبفضل عملية حسابية من منطق المغالطة يحاول الجاحظ ان يجعل للأجنـاس الخمسة نسبا واحدا او يكاد .

فقد ذكر ان « البنوى خراسانى لان نسب الابناء نسب آبائهم » مشيرا الى أن البنوى خراسانى من جهة الولادة ، وذكر أن المولى عربى لان « السنـة قد نقلت الموالى الى العرب » وقديما يعتبر الولاء نسبا .فهذا الفتح بن خاقان فى رده على المتهجم يقول: «والولاء لحمة كلحمة النسب وعلى شبيه ذلك صار حليف القوم منهم وحكمه حكمهم ».

ثم ذكر على لسان الفتح بن خاقان أن « الأتراك شاركوا العرب فى انسابهم والموالى فى أسبابهم » وأن « نسب الجميع متقاربة غير متبـاعدة » . وأردف

(5) انظر مقال Claude Cahin
Les facteurs Economiques et Sociaux dans l'Ankylose culturelle de l'Islam in Actes du Symposium international d'histoire de la Civilisation Musulmane. (Bordeaux 25-29 Juin 1956)

قائلا :« واذا كان الامر على ما ذكرنا فالاتراك خراسانية وموالى الخلفاء قصرة » • فانظر معى الى الجملة السابقة الموجزة ايجازا مفرطا كيف حوت عملية حسابية من منطق المغالطة ! انها لتفيد ان الاتراك خراسانية وبما ان الخراسانية موال والموالى قريبو النسب من الخلفاء بالولاء ، والخلفاء عرب ، فالاجناس الخمسة ترجع الى أصل واحد هو الأصل العربى • وهذا الجاحظ ، فى موطن آخر يصرح بذلك ، فاسمع اليه يقول : «فالبنوى خراسانى واذا كان الخراسانى مولى والمولى عربيا فقد صار الخراسانى والبنوى والمولىوالعربى شيئا واحدا » • ومن الطريف أن نلاحظ أن الجاحظ يورد هنا عكس العملية التى رأيناه فيما قبل ، عند ما تعرضنا لرسالة « فخر السودان على البيضان » والتى بها يحاول السودان ارجاع الجنس العربى الى الجنس الأسود ويذهبون الى أنهم أفضل من العرب لان الزنج هم « الخلص والعرب أشباه الخلص • »

أما فى رسالة « مناقب الأتراك » فان الاجناس الخمسة من جند الخلافة يبحثون عن وثائق نبلهم ويقيمون الحجة على شرف نسبهم بالرجوع الى النسب العربى • ويوفق الجاحظ ــ وتلك غايته ــ بين العناصر المتنافرة بان يبرز شرف الجميع ، عندما يرجعهم الى نسب واحد هو النسب العربى • ولئن صرح بفضل التركى فهو يذكر أن « فضله الى الجميع راجع » •

وكأن الجاحظ فى سلوكه هذا المنهج يعترف ضمنيا بأن العرب خير الأمم ، وهذا وجه آخر من الشعوبية •

وعلى كل حال فان ما اوردناه من النصوص المستقاة من رسالة فى « مناقب الأتراك وعامة جند الخلافة » هام من حيث نفسية الاجانب أو الاعاجم كما أعتادوا تسميتهم اذ تدل هذه النصوص على أن الاجانب اندمجوا تماما ــ رغم شعوبيتهم ــ فى المجتمع الاسلامى وأنهم أندمجوا خاصة فى العنصر العربى لذلك تراهم يبحثون عن مفاخر ترضى العرب ، وحاول الجاحظ ارضاءهم • فان الشعوبية بقيت ولكنها اخذت تلجا الى كل الوسائل ، حتى سلاح العرب وهو العصبية العربية فانها لم تتركه بل سخرته لنفسها • حقا انها أخذت من كل حطب وقودا •

وتهمنا كلمة النسب فى نصوص الجاحظ لأنها محور السياسة عند العرب، ظلت كذلك الى ما بعد الاسلام بكثير ، فالعصبية وحب التناصر كانا رائد القوم يومئذ • لكن هل نجد فى كلام الجاحظ صدى لوطنية اسلامية ؟ كلا ! لا نجد سوى تعصب للجنس العربى وما ذلك التعصب الا وسيلة عند الاتراك

والخراسانيين والموالى والبنويين لخدمة أغراض شخصية • ثم ان الوطنية لم تكن موجودة يومئذ وما وجدت حتى فى أيام ابن خلدون الذى ما أنفك ينتقل من بلاط الى آخر فى المغرب العربى يخدم شقا تارة وطورا شقا معاديا حسب الظروف ولقد ترك افريقية (تونس) الى مصر فى آخر الامر •

غرض الجاحظ من رسالته « مناقب الاتراك » بين وهو التـأليف بين قلوب جند الخلافة ، ثـم ان الاتراك كانـوا اهل غلظة وشدة وبطش ، واهل وبـر استجلبوا عبيدا واصبحوا أسيادا وكانوا مكروهين كرها بليغا من طرف أهل بغداد خاصة عند ما ركضوا براذينهم فى شوارعها وداسوا المارة واستحلـوا الديار والحوانيت ونهبوا الناس • وهـذا الجاحظ يؤلف فى مناقبهم وكأنـه يريد ان يجد لهم ما يكفر عن سيئاتهم امام الجمهور بأظهار مناقبهم اى مزاياهم ويدخل الكتاب بهذه الصورة فى ميدان السياسة ككتاب « العثمانية » وكتاب « فضل هاشم على عبد شمس » •

رأيت كيف ان الجاحظ يحاول ان يرجـع عناصر الجند المختلفة الى الجنس العربى فى رسالة الاتراك ، الا انه يدهشنا فى رسالته « فى بنى امية » حين ينكر على العجم والموالى انتسابهم الى العرب • فهاهو يقول : ان « الحميـة لا تبقى دينا الا أهلكته ، وهو ما صارت اليه العجم من مذهب الشعوبيـة ومـا قد صار اليه الموالى من الفخر على العجم والعرب » (6) فأنت انى حد الآن ترى الجاحظ يظهر بمظهر الاتزان ولا ترى فى موقفه الذى صرح بـه تناقضـا اذ يستنكر الحمية الا ان تعصبه للجنس العربى بفضل العرب عن الاجناس الباقية ونقمته عن الموالى ، وحياده عن مذهبه التوفيقى ، كل ذلك يبـدو فى قولـه : « وقد نجمت من الموالى ناجمة ونبتت منهم نابتة تزعم أن المولى بولائه قد صار عربيا ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « مولى القوم منهم » ولقوله « الولاء لحمة كلحمـة النسب لا يباع و لايوهـب » (ص 299) • وبعد ذلـك باسطر يضيف قـوله « ان الاعجمى لا يصير عربيا كما ان العـربى لا يصير أعجميا » • فاين نزعته التوفيقية ؟

وتسمع من الجاحظ مثل هذا التصريـح : « وليس ادعى الى الفسـاد ولا أجلب للشـر من المفاخرة » (نفس المصدر ص 300) ثم يفاجئك فى ختـام

---

(6) « رسالـة فى بنى امية » ط • حسن السندوبى (مجموع رسائـل) 1933 ص 299

رسالته « فى بنى امية » بقوله : « وقد كتبت ـ مد الله فى عمرك ـ كتبا فى مفاخرة قحطان وفى تفضيل عدنان وفى رد الموالى الى مكانهم فى الفضل والنقص والى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف » (ص 300).

وكيف يمكن للجاحظ وهو بازاء منافرات ومساجلات وفخر قوم على قوم، أن تكون كتبه « عدلا بينهم وداعية لاصلاحهم ».(ص 300) ؟ وقد يؤدى التنافر باللسان، والتفاخر بالقول الى المواجاة بالخناجر والمطاعنة بالسيوف وكيف يمكنه التوفيق بين العناصر المتطاحنة اذ التفاخر مدعاة للتفرقة ، والغريب ان الجاحظ يتوق الى الوحدة ويسلك اليها أحيانا طريقا تؤدى الى التفرقة . فأنت تراه مثلا اذا سعى الى التأليف بين قلوب العناصر الاسلامية المختلفة فى « رسالة فى مناقب الاتراك وعامة جند الخلافة » لا يسعى الى تأليفها حول :له واحد وكتاب واحد وقبلة واحدة ، أى عن طريق الاخوة الاسلامية ، بل يسعى الى تأليف القلوب المتشاحنة والاهواء المتنافرة عن طريق النسب اى عن طريق العصبية العربية ، وهى طريق مشتتة .

يبقى الجاحظ مهما يكن الامر عربى العواطف واللسان ، يرى العرب أفضل الامم والاسلام فوق الديانات ، ونهذا السبب الاخير تراه يتحرج فى الحط من شأن العجم اذا كانوا مسلمين ، فان شعوبيته اذن مكيفة بكيفية خاصة . هو ينتصر للعرب وللاسلام جميعا من دون أن يكون تعصبه للاسلام تعصبا أعمى ، بل تعصب المقتنع اليقظ الذى استخدم الفكر ويجعل العرب ضمنيا أفضل الامم ويحاول التوفيق بين باقى الاجناس التى أعتنقت الاسلام وبين العرب .

واذا كان الجاحظ بصدد النصارى او الوثنيين او المانويين واتباع مزدك او الصابئة أو اليهود لا يتردد فى مهاجمتهم ودحض حججهم .

فلقد حمل على النصارى حملة شعواء وادى ذلك الى تقريبه من البلاط ، فاسمع اليه يتحدث عن النصارى واليهود : « وانما صارت النصارى أقل مساخة من اليهود ـ على شدة مساخة النصارى ـ لان الاسرائيلى لا يزوج الا الاسرائيلى ، وكل مساختهم مردودة فيهم ومقصورة عليهم . » (7) ويتألم الجاحظ من مكانة النصارى المرموقة فى عصره فينطق عن القول الذى فيه يبدو البغض كما تبدو فيه الشعوبية . قال : « ولو علمت العوام ان النصارى والروم ليست لهم حكمة ولا بيان ولا بعد روية الا حكمة الكف من الخرط

(7) « الرد على النصارى » ط . فنكل Finkel القاهرة 1926 ص 17

والنجر والتصوير وحياكة البزيون لاخرجتهم من حدود الادباء ولحتهم من ديوان الفلاسفة والحكماء (ص 17) · وتبوأ النصارى ايام ابى عثمان مكانة كبرى فى مجتمعه وخاصة الاطباء منهم حتى ان « أسد بن جانى » الطبيب العربى « يمشي طول نهاره فى نعل مقطوعة العقب» كما جاء فى «البخلاء» (8) وعندما يعيب عليه احدهم ذلك يشكو اليه صاحبنا ابن جانى من مزاحمة النصارى له ولزملائه العرب المسلمين فى مهنتهم الى حد أن الناس صاروا لا يرتاحون الا لعلاج النصرانى وان كان دواؤه لا ينجع · قال أسد بن جانى لمن أستفسره عن سر كساد حرفته : « اما واحدة ، فانى عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل ان اتطبب ، لا بل قبل ان اخلق ، ان المسلمين لايلحون فى انطب ! واسمى اسد وكان ينبغى ان يكون اسمى صليبا ، ومرايل ، ويوحنا ، وبيرا ، وكنيتى أبو الحارث ، وكان ينبغى ان تكون ابو عيسى ، وأبو زكريا ، وأبو ابراهيم · وعلى رداء قطن ابيض ، وكان ينبغى ان يكون رداء حرير اسود ، ولفظى لفظ عربى ، وكان ينبغى ان تكون لغتى لغة اهل جندى يسابور » (ص 193) · فاعلم ان « جندى يسابور » مدرسة انشاها كسرى انو شروان ، وانشأ بجانبها بيمارستان ·

وكان علماء النساطرة يدرسون فيها علوم اليونان باللغة السريانية وفيها تخرج اشهر الاطباء ولا سيما ايام بنى العباس اذ تخرج منها ابناء بختيشوع ·

ولقد حمل الجاحظ بصفة عامة على الشعوبية وعلى العجم المتهجمين على العرب ولم يتردد ايضا فى حمله على العجم دعاة التسوية وان كانوا من المسلمين · قال فى الجزء الثالث من « البيان والتبيين » : (9) « ونبدا على اسم الله تعالى بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية وبمطاعنهم على خطباء العرب باخذ المخصرة (يريد العصا) عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم بالموزون المقفى والمنثور الذى لم يقف » · وقال فى الجزء الثانى فى الرد عليهم :« اردنا ابقاك الله ان نبتدىء صدر هذا الجزء من « البيان والتبيين » بالرد على الشعوبية فى طعنهم على خطباء العرب اذا وصلوا ايمانهم بالمخاصر واعتمدوا على وجه الارض باطراف القسى والعصى واشاروا عند ذلك بالقضبان والقنا »· (ج2 ص 5 ــ 6)

وقد اراد بعضهم ان يرى فى كتاب « البخلاء » ايضا نزعة الجاحظ الشعوبية اذ هو يظهر بشكل تهكمى بارع حقارة البخلاء من الموالى خاصة ليعظم سخاء العرب عن طريق مقارنة النقيضين ·

---

(8) « البخلاء » ط · دار اليقظة العربية بدمشق ص 196

(9) « البيان والتبين » ط عبد السلام هارون ــ القاهرة 1949 ص 5 ــ 6

وتبدو لك شعوبية الجاحظ من خلال مصنفاته على الاطلاق وقد نظرنا فى عدد غير قليل من كتب ابى عثمان ورسائله ؛ ولا مجل للشك بعد هذا فى تحيزه للجنس العربى ، وان اراد ابو عثمـان فى عدة مواطن ومواقف التوفيـق بين الاجناس المتعددة داخل دار السلام ، وهو على كل حال يقاوم الفرس والعجم عامة عند ما يفخرون على العرب ويستميلهم عند ما يحاولون الانتساب الى العرب ٠

وانك لترى فى تحيزه للجنس العربى علتين ، عند مـا تستقصى الدرس : احداهما نفسانية ، فالجاحظ عربى الاحساس والشعور ، عربى اللسان والقلم ، والثانية سياسية : فان هدف الجاحظ تدعيم السلطـة المركزيـة التى بأيـدى العباسيين العرب ، وهم عدنانيون من بنى هاشم ، ويريد ان يجمع كلمة المسلمين كافة مهما اختلفت اجناسهم حول الخلافة ، لتقوى الخلافة ٠

ويفضل الجاحظ بنى هاشم على العرب عامة وان رفع من شانهم جميعا ، وتراه يكتب « فى بنى العباس » ويـرفع قدرهم لان امـر المسلمين بايديهم ويكتب « فى بنى امية » للحط من شأنهم ورميهم بغصب الخلافة وبتحويل الامـامـة « ملكا كسرويا والخلافة منصبا قصريا » (١٥) ويحينك هو عـلى كتابه « فى مفاخرة قحطان على عدنان وفى تفضيل عدنان » ٠

لا ريب انك وقفت الان على مذهب الجاحظ السياسى وصرت تفهم شعوبيتـه ذات اللون الخاص ـ ولست اسميها شعوبية ، بل مذهبا سياسيا ـ لان شعوبيته تندمج فى اطار سلوكه السياسى ؛ فان الجاحظ ناشط سياسى وملاحظ معا ٠ فلقد انتصر ابو عثمان للعرب لسبب عـاطفى ثم لسبب سياسى لان السلطـة كـانت فى يدهم ، وانتصر خاصة للعدنانيين منهم لان بنى العبـاس هاشميون عدنـانيون ٠ ثم اراد تدعيم سلطتهم بتأليف قلوب شتى العنـاصر الاسلاميـة وجمع كلمتهم لتقوى الخلافـة ، وان سلك احيانا لهذه الغاية سبيلا مشتتـة ٠ وقد استعجل فى حكمه وجازف من حكم بتناقض الجاحظ وعدم استقراره علـى مبدا ٠ فهو يحاول ان يقوى جانب الخلافة العباسية بكـل الوسائـل وهو لذلك يساند من يساندها ، فتراه يساند الاتراك ـ وان كان الشعب فى بغداد خاصـة يكرههم ، لانهم اصبحوا ركن الدولة العباسية فى عهد المتوكل بعد ما كان الفرس عمادها وسيصير الفرس عمادها ثانية بعد عهد الجاحظ فى ايام بنى بويه ، وبعد آل بوية يسترجع الترك نفوذهم ويصبحون ركن الخلافة فى عهد السلجوقيين ولا يخفى عليك ما لهذا التارجح بين قوتين فى دولة بنى العباس من اهمية ، فان عدم استقرار الجاحظ فى افكاره السياسية هو فى الحقيقة عدم استقرار عصره ٠

(١٥) رسالة « فى بنى امية » « مجموع رسائل » لحسن السندوبى ص 293

فكلما تغيرت القوة المساندة للخلافة وللعرب عدل الجاحظ آراءه .

ان موقفه لا ريب حرج ، لكن على كل حال يبدو دائما فى مذهبه السياسى عنصر هام قار لا يتبدل مهما كانت الظروف ، هو مساندته المطلقة لخلافة بنى العباس الهاشميين ولعل مذهبه يتضح لك فى قوله فى رسالته « مدح النبيذ » (II) :« وانا رجل من بنى كنانة وللخلافة قرابة ولى فيها شفعة وهم بعد جنس وعصبة ، فأقل ما اصنع ان اكثرت لى منـه (اى من النبيذ) ان اطلب الملك » (ص 291)

فيرى الجاحظ ان بينه وبين الخلافة قرابة ، لانه من بنى كنانـة ، فلا غرو ان ناصر بنىالعباس وساندهم . فهل تعلم انقبيلة «كنانة» قد استقرت فى ضواحى مكة قبيلالاسلام واناهميتها فىنظرالنسابينالعرب تنحصرفىكون قريشتدعى انها فرع من كنانة وان الرسول ينتسب اليها . ولقد لعبت كنانة دورا خطيرا فى تاريخ مكة قبيل الاسلام اذ ساندت قريشا لما انتزعت الحكم بالقوة من ايدى خزاعة . ويستنتج من الوثائق القديمة ومن كتب الانساب خاصة كـ « جمهرة النسب » لابن الكلبى و « نهاية الارب » (I2) للنويرى و « صبح الاعشى » (I3) للقلقشندى و « كتاب الانساب » للسمعانى ، ان الفضل فى رجحان كفة قريش على كفة خزاعة بعد الفتنة التى نشبت بينهما لاجـل الاستحواذ عـلى الحكـم والانفراد به فى جمهورية مكة ، يرجـع ليعمر بن عوف بن كعب بن عـامر بن الليث بن بكر بن عبد منات ، سيد كنانة يومئذ وصاحب أمرهم ويشتم ايضا من تلك النصوص القديمة ان كنانة كانت تعطف على بنى هاشم اكثر مما كانت تعطف على عبد شمس اى بنى أمية ، وتظهر هذه النزعة فى مساندة **بنى فراس** وهم من **كنانة** لعلى بن ابى طالب فى صفين (I4)

فمن المرجح ان الجـاحظ ذلك الذى يفخر بانتسابه الى كنانـة ، سواء كان كنانى الاصل او مولى كنانة ، كان يعطف هو بدوره عطفا صادقا على العباسيين الهاشميين وهم اهل الحل والعقد وخلفـاء الاسلام ، ويريد الجاحظ ان تكـون الخلافة قـوية .

ثم اقـرأ له ــ لمزيد تأكد من مذهبه السياسى ولست أفصل بينه وبـين شعوبيته ــ ماجاء فى فصل من كتابه « فى النساء » (I5)

(II) «مدح النبيذ» منمجموع رسائل الجاحظ ، ط حسن السندوبى 1933 ص 291

(I2) « النويرى ــ الارب » ط ، القاهرة ج 2 ص 350 وما بعدها

(I3) «القلقشندى ــ « صبح الاغشى » ط ، القاهرة ج I ص 350 وما بعدهـا

(I4) E.T. Krenkow art. Kinana T 2 p.p. 1076 - 1077

(I5) « فى النساء » من مجموع رسائل الجاحظ ، ط ، السندوبى 1933

« وقضية واجبة ان الناس لايصلحهم الا رئيس واحد يجمع شملهم ويكفيهم ويحميهم من عدوهم ويمنع قويهم عن ضعيفهم وقليل لهم نظام اقوى من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم ... ولو لم يقم الله للناس الوزعة من السلطان والحماة من الملوك واهل الحياطة عليهم من الايمة لعادوا نشرا لا نظام لهم ومستكلبين لا زاجر لهم » (ص 271 – 272) فان السلامة ، سلامة الامة فى قوة الامام الحارس لها والذائد عنها. ويضيف الجاحظ قوله : « فلولا السائس ضاع المسوس ولولا قوة الراعى لهلكت الرعية » (نفس المصدر ص 271 – 272) . ولست ذاكرا الفصل كله ، فهو بمثابة نظرية الجاحظ فى الملك ، واخالك وانت تقرأ تلك السطور ، تسمع كلاما لابن خلدون . وتفهم ان دعوة ابى عثمان عمرو بن بحر لتأييد بنى العباس الهاشميين العرب مبررها الى حد كبير وجود الامامة فيهم ، ثم لشيء فى نفسه . فدين عليه اذن تقوية نفوذ الامام بالحمل على الشعوبية والرفع من شأن العرب الهاشميين اولى الامر خاصة .

وتفهم هكذا موقف الجاحظ عندما يشير الى قول المتهجم عليه فى الجزء الاول من « الحيوان » ، حق فهمه : « وعبتنى بـ « كتاب القحطانية » و كتاب « العدنانية فى الرد على القحطانية » وزعمت انى تجاوزت فيه حد الحمية الى حد العصبية وانى لم اصل الى تفضيل العدنانية الا بتنقص القحطانية » (الحيوان – ط. عبد السلام هارون ج 1 ص 4 – 5) . فاذا استطاع الجاحظ من دون حرج ان يفضل العدنانية على القحطانية ، وهذا ما يفهم من كلامه ، وان يتنقص من قيمة القحطانية كما عابه بذلك المتهجم ، فكيف لا يتنقص من الشعوبية وهم اجانب. اجل انه يتشفى منهم ويحمل عليهم بلا هوادة ولا رحمة .

ويرى الجاحظ من ناحية اخرى ان تقوية السلطة المركزية لا تتم الا بجمع كلمة المسلمين على اختلاف اجناسهم حول الامام ، ثم يرى انه يتحتم على الامام ليقوى نفوذه ، الانفراد بالسلطة لان الرؤساء اذا كثروا عمت الفوضى ويضرب الجاحظ مثل البهائم التى يجعل الله لها فحلا ليقودها وهو عند البهائم بمثابة الامام ، فيقول : «علم الله سبحانه وتعالى ان صلاح عامة البهائم فى ان يجعل لكل جنس منها فحلا يوردها الماء ويصدرها وتتبعه الى الكلا كالعير فى العانة والفحل فى الابل والهجمة وكذلك النحل العسالة والكراكى ، وما يحمى الحجور فى المروج الا الحصان ، فجعل منها رؤساء متبوعة وأذنابا تابعة ولو لم يقم الله للناس الوزعة من السلطان والحماة من الملوك واهل الحياطة عليهم من الايمة لعادوا نشرا لا نظام لهم ..» (من كتابه « فى النساء » ص 271)

تجلت لك ـ حفظك الله ـ شعوبية الجاحظ ذات اللون الخاص ، وايقنت ـ ابعد الله عنك الشبهة ـ ان هذه الشعوبية ذات اللون الخاص لا سبيل الى فهمها ان لم تفهم مذهب ابى عثمان السياسى عامة • ثم رأيت ان كتب الجاحظ ورسائله تزخر بالملاحظات حول الشعوبية لان الجاحظ شاهد عصره قبل ان يكون « ملتزما » سياسيا ، وعصره عصر قوى فيه امر الشعوبية • فان الاهمية الكبرى لكتبه تنحصر ـ زيادة عن الفائدة الادبية المحضة ـ فى الوثائق الثمينة التى تركها لنا عن حياة الخاصة والعامة وعن العوائد والاخلاق فى عصره وكيفية تفكير الاجناس البشرية يومئذ وتشوقها الى النفوذ والسلطة وشعور الجنس غير العربى بقيمته • فترى ان الفرس مثلا عن طريق الشعوبية يريدون استرجاع « جنتهم الضائعة » ومجدهم التليد ، ويسعى الترك من ناحيتهم الى افتكاك النفوذ من أيدى العرب بشتى الوسائل ومن بينها الشعوبية ، والدفاع باللسان ، والمساجلات بالقول • وقل مثل ذلك بالنسبة لكل جنس وكل طائفة • حتى العرب فانهم ما انفكوا بعد مقتل عثمان يتطاحنون ويتنازعون ، وعثمان هو القائل ويمكنك الاقتناع بقوله ، قبيل ان يسفك دمه : « لئن قتلونى لم يصلوا بعدى جميعا ابدا ، ولم يقاتلوا عدوا جميعا ابدا » • فان العرب كانوا ايام الجاحظ يحملون دم عثمان ولم يزالوا ولن يزالوا لان وطء التاريخ لا يزول•

فكتب الجاحظ غنية تزخر بملاحظات ليست من قبيل ما اعتدناه فى كتب التاريخ والادب ، ويمكنك بفضل ملاحظاته تصور التيارات السياسية المتعددة التى كانت موجودة فى دار الاسلام يومئذ والتى تجعل الهوة تتسع يوما بعد يوم بين الاجناس والطوائف المختلفة وتقويض اركان الخلافة وتنبىء بانحلالها وانقسام العالم الاسلامى دويلات وامارات

احمد خالد

عـاطفـة ودمـوع

بقلم : ابن الـواحة

كان البرد شد يدا ؛ و كان اليوم ممطرا من تلك الايام التي تعرفها العاصمة في فصل الشتاء. كان الشارع قفرا الا من بعض السابلة الذين التصقوا بالجدران خوف المطر و الا وحال التي تثيرها عجلات السيارات اثناء مرورها بسرعة فتلقي بها على وجوههم وثيابهم ولا يستطيعون الاصب بعض الشتائم و اللعنات على السائقين.

كنت اسير، و كلي نقمة، و كلي ثورة؛ و كلي غضب يرغي و يزبد. كنت اسير و ليست لي وجهة؛ تأخذني قدماي حيث ارادتا؛ قدماي اللتان بدأ البرد و الماء يجمدان اصابعهما : كنت اسمع قزقزة الماء في نعلي كلما خطوت و سرب معطفي الماء الى ثيابي، بعد أن ابتل تماما؛ و انهالت قطرات الماء من آخره فابتلت سراويلي. وبدأت اشعر بدوار؛ مرت أيام دون أن آكل شيئا لقد صرخت امعائي كثيرا؛ و أنت معدتي، و تلمضت شفتاي ،و لكنني قاومت، حتى سكتت معدتي و امعائي، و يبست شفتاي و فمي حتى من الريق . . . وعكست مرآة حائطية صورتي اثناء مروري ،لقد كنت مرعبا، مرعبا جدا. كان بنظرتي.. هول، و تحد، و اجرام... و كان بوجهي.. تحرق و نقمة، و لعنة... ذقني لم يحلق منذ مدة فتناثر شعره هنا وهناك كالعشب تلمع فوق بعضه قطيرات مطر صغيرة، و شعري الفاحم الطويل ملتصق بجبيني و خدي بدون نظام......

و غرست يدي المعروقتين العصبيتين في جيبي وواصلت طريقي، و شعرت بالدوار مرة اخرى، و برجرجة في رأسي، اني احس بالماء ينسكب من شعري على رقبتي، فثيابي، ثم يصل الى جسمي فارتعش. و مرت قربي سيدة و سقطت منها حقيبتها اليدوية، فأسرعت بالتقاطها و مدها اليها ، و لكنها نظرت الي برعب، وكاد انفتاح عينيها ان يضارع انفتاح فمها.. لم تشكرني المسكينة و لكنها اخذتها و .. فرت. مسكينة! لو عرفت من انا؟... و ضحكت كثيرا في داخلي انه ضحك يشابه البكاء تماما كالبكاء. و رأيت كلبا يجري ، لقد كان يلهث و يلتفت يمنة و يسرة و شعره يلمع، انه تائه، ضال، مثلي انا، ربما للحيوان المسكين ! انه لا يفقه شيئا، و لكنه اسعد مني بذلك، انه لا يفرق بين

الخير والشر كما افعل انا، بل يراعي اولافائدته، هو سيأكل اذا جاع حتى ولوتشاجر مع ابناءجلدته، اما انا فلن اقدر أن آكل الا اذا دفعت الثمن. وضحكت مرة اخرى... في امكاني ان اكون غنيا ولكن، رباه هذا الدوار البغيض ما فتىء يذكرني بضعفي كأنه يظنني نسيته.

ما زال المطر ينهال ، و ما زالت الشوارع التي جعلت اخترقها الواحد تلو الاخر، مقفرة. كان بالجو انقباض عجيب، ورائحة غريبة امتزجت فيها جميع الاصناف، و علا من الارض دخان، خفيف، شفاف، لا يكاد يرى..

ونسيت المطر، ونسيت نفسي ، وثيابي ، المبتلة، والبرد القارس ونسيت كل شيء... نسيت اني جائع، و ان هيئتي... مريبة ... مجرمة ... هل قدر لاحدكم ان يمشي في الطريق وهولم ينم منذ ايام ؟ ولم يأكل منذ ايـام ؟ انه سيحس تماما ما احس به الان من تعب جسماني ، ولكني احسن بتعب آخر تعب جد مرير ، تعب نفساني بغيض، مؤلم جدا . لا اظن انه يوجد انسان يحب ان يجوع وفي مقدوره ان يأكل ، وان يتعب ، وباستطاعته ان يرتاح وان يهيم على وجهه وفي امكانه ان يستقر . ولكني افضل ان اجوع وان اتعب وان اهيم ؛ على الراحة والاستقرار والاكل ..

يا الاهي ؛ ان امي لا شك تبكي الان ؛ انها لم ترني منذ ايام ؛ ولكـن ماذا في ذلك ؛ هبها تبكي ، وتتألم ، هل يصلح ذلك من الوضع او يفيـــد شيئا ؟....

وتذكرت وجهها المتقلص وهي تفضي الي بالسر الرهيب ؛ لقد كان بصوتها بحة وغصة وكانت شفتاها ترتعشان ارتعاشات غير منسقة ؛ وكان بعينيها دمع متجمد. امي ! اني احبها ؛ ولكني ابغضها الان ؛ ابغضها لانها كانت ذليلة وضحت كثيرا من اجلي انا؛ ضحت بالشباب ؛ والجمال؛وبالراحة والسعادة ؛ وبالحب ؛

قد يحس احدنا بالسعادة اذا راى غيره يهتم به ؛ وقد يتدلل من جراء ذلك ويظن انه عزيز ؛ ولكني كنت دائم الثورة على حنان امي ؛ كنت لا اريد حنانها المتدفق و حبها الدافىء ؛ لاني لا اريد ان اكون مدانا لاحد بشيء. اوه ؛ قد تظنون ان بي عتها ؛ وان فلسفتي في الحياة غالطة ؛ قد يكون ؛ ولكني افضل الا اكون مغلول العنق ؛ مقيدا بأيادي الغير... حتى ولوكانت ايادي والدتي ...

وتهالكت على مقعد ؛ في حافة الطريق ؛ لقد كان مبلولا؛ ولكن ذلك لا يثيرني ؛ انا مبتل تماما الان ؛ والدوار لا يزال يلازمني. لقد توقف المطر

عن النزول ؛ والشارع مقفركالشوارع الاخرى ؛ ان الوقت مبكر ؛ قد تكون الان الساعة السابعة ؛ رباه ! لقد نسيت ؛ نسيت انه يجب ان اذهب لمباشرة وظيفي في الادارة ؛ انه يوم عملي الاول بعد ان نجحت في المناظرة.. ولكن لا يهم ؛ لا داعي للعمل .. اوحتى للتفكير فيه..

نحن البشر ؛ قوتنا ضعف ؛ وضعفنا قوة ؛ نحن لا نود ان نظهر اننا ضعاف في شيء ما سواء انكان ماديا او معنويا ؛ فنتحطم من جراء ذلك؛ انا ضعيف لانني بشر لم اقدر على تحمل صدمة سر افضي الي بعد مرور واحد وعشرين سنة من حياتي ؛ وانا قوي لانني بشر قاومت ان اتراجع في موقفي وان اتسامح في غلطة ارتكبت ضدي ... اختنقت والدتي وهي تسألني ان اتسامح بعد ان عرفت ؛ غصت وهي ترجوني ان اغفر واصفح كما فعلت هي منذ سنين. ولكن كيف ؟كيف السبيل الى الغفران ؟ انا لا اقدر على ذلك ؛ انا كلي نقمة وغضب ؛ وكفر واحتقرتها مرة اخرى ؛ لانها ذليلة ؛ ذليلة كثيــرا ؟ كيف تصفح وقد دفعت كثيرا من عرقها ؟ هذا الخبز الذي ا كلته طيلةحياتي كان عصارة من دمها ؛ وعجين اجهادها وشبابها وتسألني ان اصفح ؟ وقد كان من الممكن ان نرتاح ونأ كل معا ؛ لكن لقد كانت ذليلة لانها تحب؛ وضحت لانها تحب ؛ وتألمت لانها تحب ؛ اما انا فانني لا احب فسوف لن اكون ذليلا وسوف لن اصفح ؛ سأ كون عاصف نقمة وغضب ؛ وتيارا جارفا من الثورة واللعنة.

ومرت امامي سيارة ؛ وكان بها غادة تعانَق سائقها الشاب ؛ ونظرت بأسى الى ذينك الشخصين ؛ انهما سخيفان ؛ سخيفان لانهما عاشقان والحبمهما اختلفت انواعه سخيف لان به.. مينا ؛ وذلا ؛ و دهانا ؛ ورياء ...

قالت امي انه احبها حبا يقارب العبادة؛ لقد كانت تعمل بالبيت كخادمة واغراها وهو السيد الكريم بجيبه المال ؛ وبقلبه الحب وآمنت هي المسكينة به ؛ وبكل ماقال من كلام معسول منسق ؛ وباتت منه على رجاء ؛ ومن العيش في كنفه كزوجة على امل ؛ ولكن خاب ظنها ؛ لفظها الذئب بعد ان شبع منها واعرض عن نبع حبها الفوارالدافق بعد ان ارتوى ؛ وكان انكنت؛ انا ؛ نتيجة ذلك ؛ وثمرة خداعه هو وحبه الكاذب ؛ وايمانها هي البلهاء وسذاجتها ...

كانت امي تبكي لانها غلطت تجاه نفسها وتجاهي ؛وكانهو يضحكلانتصاره بالخداع . وظلت هي تبكي ؛ وتعمل ؛ وتكد ؛ وتجهد نفسها ؛وتعرى ؛ وتجوع ؛وتبرد؛وظل هو يضحك؛ويرتاح ويسعد وياكل؛طيلة واحدة وعشرين سنة كلاهما في شق عن الاخر؛ كلاهما يتذكر الاخرجيدا ؛ وكلاهما يود ان يبقى بعيدا . هي لانها تخاف السيد المكين ؛ الغني ؛ الوجيه ؛ وهو لانه لا يتنازل ؛ لا يعترف... ولكنه لما تنازل ؛ ولما اعترف ؛ كان الاوان قد فات لقدكان طريح الفراش..... وتريد امي ان اصفح ! كيف ذلك ؟ أأصفح عن أب تجاهل وجودي وتجاهل انني منه واليه ؛ وتناسانا انا وامي تماما من حياته وكأننا لا نمت اليه بصلة... انا اكفر به ؛ واكفر بالحب ؛ واكفر بالابوة ؛ والعن الحنان والعطف ؛ لقد كرهتكل عاطفة بشرية سامية ..انا اكره.... اكره....اكره.

واشتد بي الدوار ان امعائي تتقطع ؛ انا اريد ان اتقيأ ؛ امعائي تصل حلقي ثم ترجع ؛ ليس بها شيء يمكن ان تلفظه... ما زلت على كرسي مبتل ؛ وبدأ المارة يكثرون وبدأت الحياة تستفيق ؛ والشارع ياهل بالناس ؛ انهم خليط عجيب هؤلاء البشر ؛ يوجد بينهم الكبير والصغير ؛ والذكر والانثى ؛ والجميل والدميم ؛ منهم من يهرول كأنه يجري وراء امل ؛ ومنهم من يتمهل ويتبختركأنه متحقق من الوصول الى غايته واهدافه بكل سهولة وبدون سرعة او مشقة.

وبدأ السحاب ينزاح ؛ وبان وجه السماء الازرق الداكن ؛ وسقط علي شعاع الشمس فانتعشت قليلا ؛ وبدات اشعر باغماء ؛ انني اضعف من دقيقة لاخرى؛ وتذكرت عبارات الوثيقة التي قراتها ؛ لقدكانت وصيته او نسخة منها لا ادري؛ ولكن ما الذي حدا بامي الى قبولها ؟ ؛ امي تقول انها الحاجة وفائدتي انا ؛ ولكن الم تكن محتاجة في السابق ؟ فلماذا لم تساله العون ؟ ولماذا لم يتفكر هو كما تفكر الان فيرحمها بالقليل كالذي يرحم به ايا كان من المعوزين الاخرين ؟ وانا ؟ ما فائدتي الان ؟ أأرحم بعد ان اشتد عودي ؛ وصلبت عضلاتي ؛ وصرت قادرا ان اعيش بكدي ؟كان بالوثيقة اعترافه بانني ابنه؛وماذا يجديني الاعتراف الان اني قضيتزهرة شبابي مغمور الاب؛وكلما سألت امي اجابت بأن ابي مات؛وانه لاعائلة لنا ولا اقارب ونشات على فراغ مريع للحنان الابوي ؛ وحرمان مرير للجو العائلي . حلمت كثيرا بالاب الذي يمكن ان يداعبني كما يداعب عم سالم طفله في الشارع ؛ وحلمت به

يشتري لي الحلوى ، ويأخذ ني معه للسوق لاحمل الخبز الى الدار ، وحلمت بنفسي ارتكب الهفوات وهو يضربني ويلعنني ليربيني ؛ حلمت بكل هذا ولكني كنت احس في قرارة نفسي بأن هذا الاب لم يفقد،وترقبت ان يأتي في يوم ما الي ،وانطويت على نفسي منذ حداثتي ، وفضلت الانزواء لما الاقية من شر الصبية وقسوتهم ، وكانت امي تنظر الي في اسى ، وبعينيها شفقة وحب،كنت اسألها في بعض الاحيان اذا كان الموتى يبعثون في الدنيا واسألها احيانا هل يمكن ان يدفن الناس رجلا حيا يظنونه ميتا ثم يتمكن ذلك الرجل من الخروج من قبره والرجوع الى عائلته ، وكانت تعرف ماارمي اليه فتنفي وقوع مثل ذلك ، وتضمني اليها بحنان بالغ وكأنها تود حمايتي من تلك الافكار ، ولكن ، كبرت ، وكبرت معي احلامي ، ثم فجاة مقت ابي ، لماذا لم يرجع ، لماذا مات قبل ان اعرفه واكبر؟ وحرمني من وجوده وحبه الابوي ، وكرهت امي كذلك ، ونقمت عن حنانها انا اريد حنانين ، في الشارع ، وفي البيت ، او لا لزوم لاحدهما....

وهاهو الاب الذي حلمت به ورجوت ان يعود الي ، الاب الذي حرمت من حنانه طيلة حياتي ... يعود ... ويالها من عودة ،.. لقد عاد على ورقة ليثبت انتسابي اليه ، لقد عاد بتوفير بعض المال الي وظن انه بذلك قد اصلح غلطه وكفر عن ذنبه ، لقد ظن انه يمكن تعويضي عن حنانه بالمال والاعتراف بي ، ولو سألني لاعلمته ان يوما واحدا من حياتي معه لافضل عندي من كنوز الارض والسماوات. انا امقته، لانه كان جبانا وخاف المجتمع فلم يتزوج والدتي بعد فعلته معها واكرهه لانه ظننا انا وامي ماديين مثله سنرضى بما فعل وسيسكتنا المال... لقد رضيت هي ، لانها ذليلة .. اما انا...

علي ! "ماذا تصنع هنا ؟" والتفت ببطء للصوت الذي قطع سيل افكاري ونظرت اليه ببصري الغائم ، لقد كان احمد صديقي الوحيد ، كان بنظرته قلق واستغراب لهيئتي ، اما هو فقد كان انيق الهندام ، وكانت بشرته النقية الوردية تنم عن اعتدال صحته وضحكت في داخلي ، ماذا كان سيحدث له لو حمل دماغه ما يحمل دماغي الان من افكار؟ ولو تعرض مثلما تعرضت لهول كهذا ؟ وسألته " احمد هل تظن انه بامكان الانسان ان يكره بجد وصدق "فغض بصره وقال" علي ، انت مريض ، انه ليس وقت فلسفة ، فقم معي الان "فقلت" اجبني اولا ، هل يمكن ان نكره بصدق كما نحب بصدق ؟ "فقال" لا ادري ، انا لم اكره في حياتي بتاتا ، فكيف يمكن ان اعرف ؟"

ووقفت وسرت مع صديقي وهو يسندني حتى المنزل ؛ ولم اجد امي ؛ وكان راسي يغلي كالمرجل ؛ وحاول احمد ان يجعلني ارقد ؛ واستغربت عدم استفساره اياي عن هيئتي كعادته في السابق ؛ فقلت "احمد ؛ هل تعرف لماذا انا هكذا ؟ "فأشاح ببصره عني وقال" نعم ؛ امك ارسلتني اليوم للبحث عنك ؛ واعلمتني بكل شيء . علي اظن انك غالط ؛ يجب ان تغفر له ؛ انه لم يرغب عنك وامك لولا المجتمع القاسي ؛ كان يسوؤه ان تنحط قيمته في اعين الناس ؛ وان ينهار من سامق مجده وعليائه ؛ علي ؛ يجب يجب ان تصفح ؛ خاصة بعد ان ... مات ..."وانتفضت صائحا "أمات ؟" "فأجاب " نعم صباح اليوم""... وعدوت . انا اعرف البيت ككل الناس ؛ واخترقت الشوارع وصديقي يلهث ورائي ؛ والناس تنظر لنا باستغراب ؛ انا لا ادري كيف استرجعت قواي ؛ كنت اعدو ؛ ولا اشعر اني اعدو ؛ كيف يموت؟ كيف ؟ ووصلت الى البيت واندفعت الى الداخل كالقنبلة ؛ كانت امي هناك ؛ ونساء اخريات ورجال واطفال .. واجلت نظري فيهم ؛ وقلت "اين هو؟ " "وقالت امي " انه ابني علي ؛ سميرة ؛ ارى اخاك غرفة المرحوم .. " وتبعت الفتاة ؛ انها اختي ؛ كانت تلتفت الي وكأنها تريد ان تعرف من اين اتيت ؛ فازت الملعونة ؛ فازت بحنانه وحدها ؛ كنت اود ان اطيح عنقها ... وفتحت بابا ؛ ودلفت الى الداخل . كان بالجو رهبة وخشوع ... وشعرت باني استفيق من غيبوبة ؛ وانفلت من دوامة وبدات افكاري تتجمع ؛ واحسست الواقع ... فاقتربت من السرير ؛ وكشفت عن وجهه الغطاء . لقد كان بملامحه تعب ؛ واجهاد ؛ ورجاء ؛ وخيل الي ان عينيه المغمضتين تنظران الي ؛ لقد كان جد جميل ومهيب ؛ ... وارتميت على صدره البارد ؛ الساكن ؛ ابكي بكاء خافتا متقطعا حارا . انها اول مرة ابكي في حياتي ؛ ولكنني كنت ابكي بصدق ؛ وعرفت انني لم اكره ابدا... بل كنت احبه كثيرا ؛ انه... ابي ...

ع.ع. ابن الـــواحـة

جزائري

بقلم هنري كريا

من بين الكتاب والشعراء الفرنسيين ـ ولا حرج علينا ان نسميهم ؟« الجزائرين الفرنسي الاصل » يوجد شاعران وكاتبان عرفتهما وانا احيا بباريس واحرر بالمجلتين الادبيتين « العصور الحديثة » و « اسبرى » هما جان سناك Jean Senac الذى نشر محادثات فى الاداب والفنون وهنرى كريا Henri Kréa الشاعر والمسرحى المعروف ، شارك بالقلم والعمل الفكرى فى الثورة الجزائرية منذ يومها الاول وساعتها الاولى ،وفى انتظار تقديم جان سناك ، اريد ان اعرفكم بالثانى ٠ ان هنرى كريا ، يبقى « الشاعر الثائر » الذى عرف كيف يجمع بين الثورة والفن ، والفردية والثورة الجماعية وهو من اعز ما يتعرض له المفكر ٠ وعلينا ان نتبع خطاه منذ محاولته الاولى سنة 1955 نراه فى ديوانه الاول ، « مدى طويل » Longue Durée (1) يثير مشكلة التعبير الشعرى والفردية والفن ، والانسانية وهو اول خطوة ، ولكن الامل يثقلها كالثمار الشهية التى لا بد ان تينع يوما من الايام ونشر هنرى كريا ، سنة 1957 ، مجموعة شعرية اخرى عنوانها « حرية اولى » Liberté Première

نسمع فيها صرخة الشاعر ونلمح المأساة الداخلية التى تثور فى نفسه عند مشاهدة عمليات «التهدئة» التى هى فى الحقيقة مجازر بشرية وعمليات حربية سافرة فالتقتيل الدامى الفظيع الذى نشاهده كل يوم من ايام الثورة الجزائرية ألهم واثار ، قصاصا مثل محمد ذيب فى صيف افريقى (2) وشاعرا مثل هنرى كريا ، نبرات صادقة وصرخة خارجة من اعماق الروح ، يقول الشاعر (3) ـ وقد زج بنفسه فى التزام يابى التشدق بالالفاظ الرنانة الخاوية ويابى المناقشة البيزنطية ومذهب الفن للفن (على غرار بعضهم) فى الساعة التى يسقط فيها الانسان الجزائرى امام قوى الظلام يقول ٠

---

(1) بدار بيار جان اسوالد Pierre Jean Oswald 2 بطحاء بودواى باريس 4 ، رسم J. C. Fourneau صور هذا الديوان الذى يذكر القارىء بالاسطوانات الطويلة المدى ٠

(2) انظر ترجمتنا « تفتيش فى القرية » ـ الفكر ـ السنة السادسة العدد 2 ـ نوفمبر 1960

(3) ديوان « حرية اولى » ص 36

« ايها الشعب الطيب
انك لا تعرف الحقد
كل الذين يقتلونك
ايها الشعب الطيب
ايها الشعب الحر
شعب الجزائر
الشعب الجزائري الذي اعتقد غيره
ان طيبة قلبه استسلام وخضوع »

ولقد حلل كلود روا هذا الديوان فقال عن كريـا « ان شعره صلب يتعالى ويرن كل بيت من ابياته كالسهم الرنـان • انك تكتشف في شعره الغضب ولاتكتشف الادعاء • وتكتشف النفس الطويل ولا تكتشف الاناقـة والتجمل اللفظي وتكتشف فيه كرم النفس ولا تكتشف فيه الدموع والتباكي »

ونضيف الى ديوانه هذا بحثا آخر ، هو « الثورة والشعر هما شيء واحد»
La Révolution et la Poésie sont une seule et même chose

حلله الناقد الادبي لجريدة الاكسبريس • في شهر جويلية المنصرم ، **تحليلا** طويلا وتحدث عن جرأته ، وعن صدق لهجته ، وعن تجربته التـي تنم حقـا عن مأساة الرجل والمفكر والشاعر الثوري امام المظالم والمجازر ، التي يحياها شعب الجزائر ، هذا الشعب الذي احس « كريا » انه منه واليه • وتجربته كيف يكون الشعر ، امثل طريق للوصول الى الثورة الشاملة ، التي هدفهامحبة الانسان وتحريره من مرهقات الضمير ومن العـادات والتقاليد التـي تقوم حاجزا دون انطلاقة الانسان الكبرى ، امام القوى الاجتماعية والاقتصادية الجائرة التي تستثمره وتشرب عرق جبينه • ولا شك في ان هنري كريا قـد تشبع بالروح « اليسارية » دون ان يذهب بهذلك الى فقد عقله الناقد بل نراه مندفعا في تيار الاشتراكية المتحررة التـي تريد ان تكون نقطـة وصل بين جميع القوى الديمقراطية ، الفرنسية التـي تريد السلام والحريـة للشعب الجزائري • واخيرا هنري كريا ، صاحب رواية « الزلزال » التي تدور كلها حول المأساة الجزائرية ، وموضوعها ان الزلزال قد يكون طبيعيا ولكن هناك زلزال بشري ، هو زلزال الثورة **الكبرى** التي ترمي الى ان تكـون البشرية متآخية •

اعـدت هـذه الـروايـة للتمثيـل ببـاريس ، ولكـن السلط حـالت دون تمثيلها •

ولقد هيأ الموضوع ، وبعثه على النضج عن هنري كريا ــ ديوانان نشرهما بمدينـة فلو رنس بايطـاليا (4) وعنوانهما يوم ضيم (5) ودرس الظـلام

(4) عند دار Vallechi للنشر
(5) صور رسوم هذا الديوان فريو Ferro

(6) وفي هذا وذاك يتعرض هنرى كريا فى اسلوب سريالى حى الى مشكلة الثورة الجزائرية والازمة التى تخلفها فى نفوس « الفرنسى الاصل » ولم يقف هنرى كريا على هذه الاثار بل نشر منذ سنتين ديوانا آخر ، ديوانا جديدا عنوانه (الحمامات) (7) نحا فيه منحى كاتب ياسين ، فى ربط الذات والشاعرية الذاتية بالماضى ، بتلك الاحجار ، التى تحدث عنها شاعرنا التونسى عبد المجيد التلاتلى فقال انها « رماد ».(8)

وهنرى كريا اليوم ، مع ما يشعر به الكاتب والشاعر الذى وجد نفسه « فرنسى الجنسية » مع انه اختار الجزائر والثورة الجزائرية ، يعد مؤلفات اخرى ، خاصة قصة عنوانها « قبريوغرطة » ومؤلفا عن الكتاب والروائيين المغاربة المعاصرين الذين يؤلفون باللغة الفرنسية • وصورة عامة للادب المغربى الجديد (باللغة الفرنسية) ونقدم اليوم ، تعريبا لفصل من فصول رواية **« الزلزال » التى تعبر عن ايمان هنرى كريا بمستقبل الثورة الجزائرية المضمون وتقوم بشهادة عن انسانيتها • نقدم منها المشهد الرابع من الفصل الاول**

زلازل بشرية

أصوات

ان نغالب العزلة
ان نتغلب عليها ، فى صميمها
وان نلتحق بفوج الآخرين فى الثورة
دون اية خطة مدبرة
ان ننظر الثورة وجها لوجه
لقد يئسنا منها
وعلينا ان نعترف
انها ــ الثورة ــ الآن ، ها هنا ، أمامنا
وعلينا ان نلزم أنفسنا
لكى نقبل
بان اليوم الرهيب
اقبل تحف به مصائبه وويلاته
ولكن المصائب ، لأمر ما تفيد كثيرا ،
مثلا •
للقضاء الكامل على الفقر والفاقة

---

(6) صور رسوم هذا الديوان متى Matta

(7) باريس 1958 ــ دار Pierre Jean Oswald

(8) نشير الى ديوان عبد المجيد التلاتلى Sur les Cendres de Carthage

ولانبعاث العواطف الكبرى انبعاثا لا شك !
لا بد أن نموت جوعا
وان اكلنا ، فسنأكل حتى قشور البطيخ اليابسة ٠
لكى نكون بشرا
لكى نعلم ما الذى يختفى خلف كلمة الألم
حقا ! نعم حقا !

لسنا افكارا يأكلها الخيال
نحن نحمل الفرح (الذى سيصبح) صيرورة مضبوطة
ويقينا لموائد شهية ـ دون ان نحمل معنى الاحتقار ـ
هذا هو المعنى ، معنى حضورنا الضوضائى فى عالم يندفع اندفاعا نحو التسامح الموضوعى
يتبنى الرق الذى يأباه العقل السليم

مجموعة الأصوات

فى منتصف الطريق
بين الرمل والبلور
بين السماء والمحيط الواسع العريق
بين القمح والخمير
فى منتصف الطريق
بين الممكن والأمل
حيرتنا الهائلة
تجمع ضرائبها اكداسا

أصـــوات

كيف لنا ان نتخيل تخيلا معقولا انطلاقة الغضب البشرى انطلاقا مباغتا ٠

كيف لنا أن نقبل ان ينفلق كل شىء فى يوم واحد علينا ان نفترض لزوم انفلاق حادث اشد غرابة من انطلاقة صوفية ـ والا فنحن عقول مجنونة ـ حادث ، على مرأى ومسمع الفاتحين المنكوبين (فى صلفهم)

ان النظام الصوفى ، هو نفسه ، انقلب رأسا على عقب

والنظام المعقول أصبح يبعث على السخرية والنظام الفيزيقى أصبح مختارا قلقا اعترفوا اذا ، واتفقوا بأن الارض قد تأثرت فى الوقت ذاته الذى أفاق فيه الشعب من الذهول الواضح الذى القى فيــه بدون توان ، وحسب رغبــة القراصنة ، وعليك ان تعترف ان الزلازل ناتجة عن الاسباب نفسها ؛ سواء أكانت زلازل بشرية أم زلازل أرضية ٠

الثور الذي خلفه ابى

بقلم: حسن نصر

مسكينة أمى .. انها ما زالت تقف حيث تركتها تنتظرنى .. هل ترانى قد تأخرت عليها .. اننى لم اضيع دقيقة واحدة .. لقد قطعت كامل المسافة وأنا اعدو .. وغبار الطريق يتصاعد فى أنفى .. والشمس المحرقة تسطع فى جبينى .. وكلى غارق فى العرق .

ماذا سأقول لها الآن .. انها سوف تغضب لا محالة .. لكن ما ذنبى أنا .. لست أنا الذى تعمدت هذا الابطاء .. ان عم ـ رابح ـ هو الذى أبقانى كامل هذا الوقت .

لقد وجدته جالسا فى الفراش مريضا .. ويبدو انه كان قلقا اذ ما كاد يرانى .. حتى تعلق بى ، وأخذ يسألنى عن امى ، واخوتى الصغار ، وعن سير المزرعة ، وهل هى ما زالت كعهدها فى حياة أبى .. وهل استطعت انا ان انهض بأعباء المزرعة بعد وفاة والدى .

ثم انه اخذ يسألنى عن الثور الذى كان باعه الى والدى منذ زمن بعيد .. يوم كان يتاجر فى البقر .. ويسافر الى البقاع البعيدة .

لقد مكث اعواما طويلة يمارس هذه المهنة .. قبل أن يقعد به المرض .. وعرف جميع أنواع الثيران .. وصار يميز بين كل جنس منها .

وكان اذا مرض ثور يعالجه بنفسه .. كان يعرف نوع كل مرض .. ويعرف الدواء الذى يستعمل لكل نوع من هذه الامراض .

ولقد احببت هذا الرجل . وهو يتحدث الى ، كما لم اكن احببت انسانا من قبل .. احببته فى جلسته الهادئة .. وفى وجهه الاسمر .. وشعر ذقنه الابيض ، وكأنه القطن فى المزارع .. وكان حديثه يشبه خرير الساقية .. لا يستطيع الانسان ان يمله حتى ولو امتد الى الابد .

وحين ذكرت لعم ـ رابح ـ ان ثورنا مريض .. وان امى بعثتنى اليه من اجل ان يأتى معى ليساعدنا على معالجته .. بعد ما اعيتها الحيلة فى ان تجد دواء ناجعا .. تأثر الرجل ايما تأثر وهم أن ينهض معى .. لكننى أشفقت عليه .. فلم أرض له بأن يصحبنى وهو على هذا الحال .

ثم اننى غادرته بعد ذلك ٠٠ وكأننى انتزع نفسى انتزاعا ٠٠ فلقد وددت لو أن حديثه طال الى آخر العمر ٠

(وعاد منصور) يسأل نفسه ٠ وهو يسير فى الطريق الضيق عبر الحقول ٠ ٠ وعيناه تنظران الى شبح امه التى ظهرت له من بعيد ، وهى تقف أمام سور المزرعة ٠

لماذا تقف هكذا ٠ ٠ لا بد ان حالة الثور قد زادت سوءا ٠ ٠ والا لما خرجت فى مثل هذا الحر تنتظرنى ٠٠ كان على ان اصل قبل هذا الوقت ٠٠ حتى لا أتركها تواجه الامور بمفردها ٠

لكن ما ذا سينفعها وصولى ٠٠ بل ما الذى يمكن ان افعله من أجلها أو من أجل هذا الثور ٠ ٠ لا شيء على الاطلاق ٠ ٠ سوى أنى سأقف صامتا ٠ ٠ وتقف هى الى جوارى ٠ ٠ ثم نظل نرقب الثور وهو يصارع الموت الى أن ينتهى ٠

هذا اذا فضلت امى ان تبقى ساكنة ٠٠ تشاهد كيف تنزل آخر ستارة على اخر حكاية لثور كان اشتراه ابى ٠

اما اذا هى اختارت ان تظل حتى آخر وقت ٠٠ تصنع الادوية لهذا الثور ٠٠ وتقتنى له الحشايش ٠ ٠ ثم تدعونى أنا الآخر الى أن اساعدها على هذا الامر٠

اذا ما أختارت هذا الصنيع ٠ ٠ فلا يسعنى انذاك الا أن أتركها ٠ والتفت بوجهى عبر الحقول ٠

فأنا لا اريد أن أبحث عن دواء لهذا الثور ٠ ٠ وانما اريد أن أبحث عن كيفية يمكن أن أتخلص بها منه ٠

ولقد حاولت ذلك مرات كثيرة ٠ ٠ وكنت فى كل مرة أصطدم بأمى ٠ ٠ كنت أجدها دائما تقف عرضة فى سبيلى ٠

فقد حدث ان أغتنمت فرصة غيابها ذات يوم عن الحقل ٠ ٠ وحملت الثور الى السوق ٠ وما كدت أبيعه ، وآخذ ثمنه فى يدى ٠ ٠ حتى فجئت بأمى وقد اخذتنى على حين غدرة ٠ ٠ ثم هى أنهالت على ضربا أمام جميع الناس٠٠ الامر الذى أضطرنى الى ان اعطيها ما قبضته بيدى ٠ وانصرف من السوق ٠

كانت امى امراة قاسية وقوية ، وكنت اخافها فكنت ترانى عاجزا عن ان اصنع شيئا ، لانها كانت تستطيع بكل سهولة ان تمنعه عنى ٠

ولقد حاولت أن آخذها بطريقة اخرى ٠ ٠ قلت لها :

ــ انى اريد ان اشترى عوض الثور ــ محركا آليا ــ كمثل ذلك الذى اشتراه

جارنا مبروك ٠٠ يستطيع أن يصعد لنا الماء بسهولة من باطن البئر ٠ مع قليل من الوقت ٠٠ وبأكثر غزارة من الدلو ٠

ولم اقف بها عند هذا الحد ٠٠ بل انى اخذتها معى الى حقل جارنا مبروك وشاهدت كيف ان الماء يجرى بغزارة فى السواقى ٠٠ وكيف ان اثنين من العملة كانا يحولان مجارى المياه ٠٠ والمياه مع ذلك كانت تسبقهم ٠

وكم اعجب أمى منظر الحوض الكبير وكأنه البحيرة ، والمياه تصب فيه آتية من باطن البئر ٠٠ بدون أن يكون هناك ثور ، ولا دلو ، ولا حتى انسان ٠

وكانت ان قالت لى بعد ان رجعنا الى حقلنا :

ـ ان والدك يابنى ، أوصانى قبل مماته ، بأن أحافظ على هذا الثور ٠٠ وان لا أتركه يضيع من أيدينا بأى ثمن ٠٠ ففى ضياعه ضياع لنا ولحقلنا ٠٠ ثم اذا كان هناك من ينوب الثور فى اصعاد الماء من باطن البئر ٠٠ فلا اظن انه يوجد كذلك من ينوب الثور فى حرث الارض ٠٠ خير لنا ياولدى أن نحتفظ بهذا الثور الذى كان أشتراه أبوك من كد عمله وعرق جبينه ٠٠ وأن لا نتركه يضيع من أيدينا ٠٠ أننا لسنا فى حاجة لان نطلب مزيدا من الماء ٠٠ ففى دلونا الذى يحمله لنا الثور ما يكفينا من الماء وزيادة ٠

اننى سئمت حكاية هذا الثور حتى الموت ٠٠ سئمت انات هذه البكرات التى لا تنقطع طوال اليوم ٠٠ وهذه الحركة الصاعدة النازلة فى الاخدود والثور أمامى ٠٠ والحبال المشدودة بين الثور والدلو تتراقص فى عينى ٠٠ وأنا غارق فى العرق ٠

لماذا امى تريد منى أن أتبع أبى فى كل شىء ٠٠ أن أكون مثله فى كل شىء ٠٠ اذا كان أبى قد أتبع أباه فى كل ما وجده عليه ٠٠ فأنا لا أستطيع أن اتبع ابى فى كل ما خلفه لى ٠٠ لا استطيع ان احيا حياة ابى ٠٠ لى حياتى الخاصة احياها كما يتفق لى انا ٠٠ ولا شأن لاى انسان فى ان يملى على اراء من عنده ٠٠ حتى ولو كان هذا الانسان ابى نفسه لو انه كا حيا ٠

* * *

وصل منصور الى الحقل ، واجتاز الممر الضيق الموصل الى البيت ٠٠ دون ان يلتفت الى امه ٠٠ وسمعها تناديه :

ـ منصور ٠٠ مالك يابنى تأخرت الى هذا الوقت ؟

ـ لست انا الذى اردت ذلك ٠٠ ان الرجل الذى بعثتنى اليه هو الذى تسبب فى ابقائى كامل هذا الوقت ؟

– واين هو آلان لماذا لم يأتى معك ؟

– لقد وجدته مريضا

– وهل أعلمته بحالة الثور ؟

– أجل ٠٠ أعلمته بذلك ٠٠ وقد هم بأن يأتى معى ٠٠ لكنه كان مريضا فلم يقدر حتى على النهوض من فراشه ٠

واطرقت الام اطراقة طويلة – ثم رفعت رأسها الى ابنها وقالت فى صوت كانه الحزن ٠

– وهل فكرت فى امر الثور ؟

وهم منصور بأن يسكت عن هذا السؤال ، ويذهب فى سبيلـه ٠٠ لكنـه تمالك نفسه ٠٠ واجاب امه قائلا :

– ان التفكير بعد هذا الوقت لم يعد من شأنى انا

– اذن هو من شأن من ؟

– من شأنك انت

– من شأنى انا وكيف ذلك ؟

ولم يستطع منصور ان يزيد حرفا واحدا ٠٠ وحول عينيه ناظرا الى الحقول ثم تابع طريقه الى حيث كان قد خلف الثور تحت ظل الكرمة ٠

وهناك وجده ملقى على جنبه ٠٠ ورأسه الاسود الكبير منقشع الى خلف ٠٠ وساقاه ممدودتان الى الامام ٠٠ وذنبه الغليظ من الاسفل مطروح على الارض وكأنه شىء ليس منه ٠٠ والذباب الكثير يتجمع حـول انفه ٠٠ وبالقرب من عينيه ٠٠ وعلى اجزاء متفرقة من بقية جسمه ٠

هذا الجسم الضخم وقد افترش كامل ظل الكرمة ، التى كان ملقى تحتها ٠

لقد بدا وكـانه ميت منذ امد بعيد ٠٠ ووقف منصور ينظر اليه صامتا ٠٠ ووقفت امه الى جواره تنظر اليه صامتة هى الاخرى ٠٠ ثم سمعاه يطلق خوارة عظيمة تجاوبت اصداؤها فى الحقول البعيدة ٠٠ ومد ساقيه اكثر فاكثر ٠٠ ثم اطلق خوارة ثانية ٠٠ ثم لم يعد شىء ٠

حسن نصر

مطالعات

الشابى شاعر الحب والحياة

للدكتور عمر فروخ

تقديم ونقد محمد الحليوي

اهدانا الاستاذ البحاثة الدكتور عمر فروخ كتابه الجديد عن الشابى الذى اسماه « الشابى شاعر الحب والحياة » وهو الكتاب الذى اشارت مجلة الفكر فى عددها الصادر فى اكتوبر 1960 الى قـرب صدوره ونشرت مقـدمته التى بعث بها الدكتور فروخ اليها بعنوان « هذه المعركة حول الشابى » والقـراء يعلمون ان الدكتور فـروخ اصدر فى سنة 1954 كتاب « شاعـران معاصران » الذى كتبنا عنه فى مجلة الفكر (1) منتقدين بعض ما جـاء فيه خـاصا بحياة الشابى وتقدير مكانته الشعرية ·

اما هذا الكتاب الجديد فقد ذكر المؤلف فى كلمة التصدير ان رحلته القصيرة للمغرب ـ وخصوصا لتونس والقيروان ـ ولقاءه لنفر من الادباء مكنه من معرفة اشياء عن الشابى لم يكن عرفها من الكتب · كما ان صدور ديوان الشاعر وعدد كثير من المقالات والكتب عن الشابى بعد صدور كتابه الاول قد دفعه لتوسيع دراسته عن الشابى واصدارها على حدة · وفى هذا الغرض يقـول « وجدت حدود الفصول التى كنت رسمتها فى الدراسة الاولى تضيق عن المواد الجديدة فكتبت هاته الدراسة من جديد حتى ليصح القول ان هذا الكتاب كتاب جديد لا يشبه دراسة الشابى فى « **شاعران معاصران** » ولكن لا يبطلها »

والحقيقة ان الكتاب الجديد كان جديدا فى روحه ومادته وكان اقرب لانصاف الشابى وفهم منابع تفكيره · ونحن لا نود ان نناقش الدكتور فروخ مرة اخرى فى محتوياته لان مواضع الاتفاق معه اصبحت اكثر من مواضع الخلاف ، ولان المادة التى استخدمها هاته المرة كانت غزيرة ومتنوعة وقد تمكن الدكتور فروخ

(1) عددا ماى وجويلية 1960

من عرضها باطناب واستخراج مـا يمكن استخراجه منهـا لدراسة الشاعر ودراسة احواله دراسة الباحث الخبير بمسالك البحث

لقد استهل الدكتور فروخ دراسته بكلمة عن بيئة الشابى ابتداء من عهـد الحكم العثمانى الى عهد الاستقلال متتبعا الجو الذى عاش فيه الشابى وشهده مشيرا الى اهم الاحداث السياسية والاجتماعية اشارة موجزة ولكنها لا تخلو من دقـة وافادة ٠

ثم انتقل الى الحديث عن الشعر المعاصر فى تونس مستمدا دراسته من كتاب الادب التونسى فى القرن الرابع عشر للاستاذ زين العابدين السنوسى ومن كتاب الحركة الادبية والفكرية فى تونس للاستاذ محمد الفاضل ابن عاشور ٠ وقد اراد المؤلف ان يثبت فى هذا الفصل ان تونس لم تكن قبل الشابى بلدا قفرا خاليا من كل حركة ادبية او فكرية ، وان الشابى قد استجاب لحركة كانت معروفة فى زمنه وبيئته ولكنه ثقفها واوغل فيها حتى كان احسن ممثل لهـا خلافا لما ذهب اليه بعض الباحثين التونسيين من ان تونس قبل الشابى كانت خـواء (2)

ثم تحدث فى الفصل التالى عن ترجمة حياة الشابى وأفـاد من التحقيقات التى ظهرت اخيرا وعدل كثيرا من آرائه الاولى واصلح كثيرا من اوهامه فى هاته الناحية وتعرض فى هذا الفصل لمشكلة حب الشابى واستعرض ما قيل فيها ولكنـه بقى عـلى رأيه الاول فى هـاته المسألة (حب الشابى المـادى) وناقش قصة مرضه وحقق هاته الفترة من حياة الشاعر الى حين موته وما كتب عنه بعد وفاته وقد اعتمد الدكتور على كل ما نشر فى هذا الغرض ولم يترك مصدرا من المصادر لم يتعرض له بالتحقيق والمناقشة

ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن عناصر شخصية الشاعر وقد استبقى فى هذا الفصل اهم ماذهب اليه فى دراسته الاولى ولكنه حين تحدث عن اثر الادب المهجرى اعترف « بان الشابى شاعرا خير من جبران بلاريب ولعله فى قصائده المختارة يتقدم ايضا على ابى ماضى »

ويأتى بعد ذلك فصل مطول ــ هو اهم مافى الكتاب ــ يتحدث فيه المؤلف باسهاب عن شعر الشابى من ناحية الفنون التى طرقها ومن ناحية الصناعة وطريقة النظم ٠ وقد لاحظنا ان الدكتور استبقى مـا كتبه فى دراسته الاولى

(2) ابو القاسم محمد كرو فى « كفاح الشابى »

وزاد عليه ما استفاده من الديوان ولا شك ان هاته الدراسة لشعر الشابى تعتمد على ما يسميه الدكتور « النهج العلمى » وينعى على منتقديه تنكبهم اياه فيما كتبوا عن الشابى ونحن نقول له اننا لا نؤمن كثيرا بهذا « النهج العلمى » فى دراسة الشعر اذا لم يضف اليه عنصر « التذوق »

وقبل ان اختم هاته الكلمة العاجلة احب ان اقـول للدكتور انى لست من الذين يقدسون الادب الفرنسى والادب المهجرى · كما ذهب اليه (ص 26) ولا ادرى من اين فهم ذلك · والاقرب للواقع ان يقال انى معجب بهما : وشتان بين التقديس والاعجاب

كما احب ان اقول له ان الذى ذكره (ص 23) على انه كـلام مصطفى رجب وعاتبه عليه هو كلام الشابى نقل بنصه من كتاب « الخيال الشعرى عند العرب » فلا وجه للوم الكاتب عليه ·

والخلاصة اننا نرحب بكتاب الدكتور فروخ ونعتبره من اوفى ما كتب عن الشابى ونشكر له جهده فى التحقيق ولكنا نعاتبه على وصف منتقديه بأنهم لم يكونوا منهجيين فى بحوثهم ولا كانوا ينطقون بالحق ثم تصنيف هؤلاء الباحثين اصنافـا فيها البعثى وفيها القومى العربى وفيها الجـانح للغرب ونقول له ان هاته « التخرصات » ليست هى ايضا من الموضوعية او « المنهجية » فى شىء ·

م· ح·

اصداء الفكر

• حول الشعر في لبنان

طرحت جريدة « لسان الحال » البيروتية هذين السؤالين على الدكتور خليل حاوى ورأينا نقل جوابه الى قرائنا عن مجلة « الاداب » كي يتيسر لهم الالمام بالشؤون الادبية في الشرق العربي :

س – يعتقد البعض ان الشعر في لبنان وفي حقبة ما بين الحربين قد شق آفاقا جديدة ، فما رايك في ذلك ؟

ج – ارى ان الشعر في لبنان ، وفي هذه الحقبة بالذات ، لم يكتشف جديدا ولم يأت بخلق اصيل ، بل كان هائما ضائعا يتوكأ حينا على القديم الجامد وحينا على الغريب المجلوب • فانك تلمح وراء كل قصيدة شبح شاعر غربي حديث او عربي قديم • والشاعر الاصيل يضرب جذورا عميقة في حضارته وفي الحضارة العالمية ، يمتص الغذاء الصالح فيحيله الى مادة ذاتية • والآفة الكبرى التي ضربت شعراء تلك الحقبة تعود الى آخذهم باللغة العربية اداة مجردة للتعبير ، وتنكرهم لها من حيث هي لغة تحمل حضارة خاصة • ومن ثم كان ان جرفتهم الحضارة الغربية وامتصهم الادب الغربي ومسح معالم شخصيتهم • ومع ذلك فان افتتانهم بالادب الغربي لم يدفعهم الى التعمق في خصائصه الجوهرية واستيعاب تراثه المتكامل العريق ، وانما وقفوا منه عند طوره الاخير وظواهره العرضية• فانت تسمع اصداء غامضة وترى صورا مشوهة للمذاهب الغربية في شعرهم• كذلك كان شأنهم حيال الشعر العربي الذي لم يتعمقوه ، فوقعوا ضحية لما فيه من تقاليد ليست من صميم الفن الاصيل • وقد وقفوا في اللغة عند العصر العباسي فكان الطلاق بين الاسلوب والمضمون في شعرهم • تعبير مغرق في البعد عن لغة الحياة في هذا العصر ، ومضمون مستحدث استلموه جاهزا من مصادر اجنبية • لهذا كله جاء شعرهم غريبا عن واقعنا ، وكان في الوقت نفسه تنوعا بسيطا في سياق الشعر العربي • فشعر سعيد عقل – مثلا – لا يعدو الاسلوب التقليدي الذي يستهدف صياغة المعاني الذهنية والفكر المجردة صياغة زخرف وتجميل • اما البيت عنده فما يزال وحدة الشعر ، والبناء في القصيدة ما يزال هندسية لفظية ، وقوالب براقة جامدة نفتقد فيها

نشاط الحيوية المتوهجة ، ونفتقد من تجارب الانسان كلما لا يحشرفى قوالب الهندسة • فكان ان ظلت مسألة التجديد ، بعد الحرب الثانية ، كما كانت من قبل ، محاولة يجب ان تستهدف تحطيم البناء القديم • وكسر العبارة التقليدية وردها الى الواقع ، وهدم السور القائم بين الشعر والحياة ، والتعبير عن تجربة الانسان فى واقع بلادنا وعصرنا ، ثم النفاذ عبر ذلك الى تجربة الانسان فى كل عصر •

س ـ والشعر فى لبنان بعد الحرب العالمية الثانية ، وهذه الضجة حول القصيدة المنشورة ؟

ج ـ اود ان اتحدث اولا عن ثقافة الشعراء ثم اردف الكلام على نتاجهم الشعرى • وابرز ما يلفت النظر فى ثقافة الشعراء الجدد ، او الذين حاولوا ان يتجددوا، ان تلك الآفات التى ضربت ثقافة سابقيهم قد امتدت الى ثقافتهم وشاعت فيها على مجال اوسع وارهب • فانهم باستثناء القلة منهم يكتبون بلغة لا يحفلون بها ، ولشعب انفصلوا بهمومهم عن همومه ، ويلتصقون من الخارج بحضارته التى يجهلونها • وهم فى الوقت نفسه يذوبون صبوة الى الحضارة الغربية التى يزيد جهلهم بها عن جهلهم بالحضارة العربية • انها صبوة البسيط الساذج لكل مبهم معقد بعيد • ولا عجب ان يلتقطوا الثقافة من مجلات الادب الغربى ، ويأخذوا باحدث زى يظهر فيها ظنا منهم ان فى ذلك غاية السبق والتجديد • وفاتهم ان التجديد بدون اصالة ذاتية تقليد اعمى • ولا اقسو اذا قلت انهم فريسة لامية فى الفكر والفن وليتم حضارى جعلهم عرضة للانطباع بكل وافد غريب • فتراهم لا يخرجون من رحم شاعر اوروبى الا ليدخلوا فى رحم شاعر اوروبى • ومن ثم كان نتاجهم معرضا للانفعالات المتلاحقة بالاخرين • فاذا انت تفحصته بدالك طبقات ملونة ، كل طبقة بلون ، وبدت لك شخصياتهم كانها (ملفوف) متعدد الالوان • فليس فى تطورهم دفع من الداخل وليس فيه نماء طبيعى حتمى • ان نتاجهم لدليل محزن على ان الشعر فى لبنان ما يزال منفعلا متسكعا وراء الشعر الغربى • وما دام النتاج فى غالبيته على هذا الهزال فقد انتفى معنى الفارق فى الشكل ، سواء كان الشكل قصيدة منثورة ام شعرا مقفى موزونا •

◆ اقام اتحاد الادباء العراقيين احتفالا بمناسبة مرور ربع قرن على وفاة الشاعر الزهاوى وذلك مساء ١٩٦١/٢/٢٤

● رأى « سان جون برس » فى الشعر

القى الشاعر الفرنسى سان جون برس الفائز بجائزة نوبل للاداب عن عام 1960 فىستوكهولم ، عند تسلمه الجائزة ، خطابا عنمهمة الشاعرنثبت منها ما يأتى حسب مجلة « شعر » اللبنانية عدد 17 :

« ما نكرمه هنا هوالفكر الذى لا مصلحة للشاعر او للرجلالعالم من ورائه. لان لا عداوة فى الاصل بين الشاعر والعالم وان اختلفت بعض الاحيان اساليب البحث عند الفريقين .

وعندما نقيس المأساة التى يتعرض لها العالم الذى كشف فىمطلقحساباته عن حدوده المعقولة المنطقية ، وعندما نرى فى الفيزياء مذهبين رئيسيين : الاول يطرح مبدأ عاما عن النسبية والآخر مبدأ عن الشك . وعندما نرى احد كبار رجال العلم لهذا العصر يقوم بالمبادرة فى معرفة الكون ونشهد تظاهرات لها اليوم ومن وقت الى آخر ، عندما نقيس اذن او نرى كل هذا الا يحق لنا ان نعتبر الالة الشعرية آلة شرعية كغيرها من الالات المنطقية المعقولة ؟

ان كل شيء فى الحقيقة هو اولا شعرى بالمعنى الخاص لهذه الكلمة . فكما ان عند الشاعر عملية متحركة نابعة من احاسيسه وافكاره كذلك عند الرجل العالم الذى لا يختلف هذا لديه . ان السر واحد عند كليهما . المغامرة التى هى فى وجدان الشاعر ليست اقل من مغامرة الرجل العالم . واذا كان الشعر لا يقف وقوفا واقعيا على الشيء الذى يقف عليه العلم فانه اقرب ما يكون الى ادراك ذلك الشيء بشكل وجدانى صميم بل بشكل نورانى يفسر ردات الفعل القوية التى يقف العلم بحيرة امامها.وعند ما يكف الفلاسفة انفسهم عن النظر فى امور ما وراء الطبيعة فان الشاعر عندئذ جدير بان ينظر فى هذه الامور وحده . ويكون بهذا ان الشعر هو ابن العجب ، على حد ما جاء من كلام بهذا المعنى ، لفيلسوف قديم .

ان الشعر الى جانب كونه اسلوب معرفة ، هو ايضاً اسلوب حياة . الشاعر كان موجودا فى انسان الكهوف الاولى وسيكون موجودا فى انسان العصور النووية لانه جزء لا يتجزا من الانسان . وعندما تنهار الاساطير الدينية فليس لها كى تحيا من جديد الا الشعر . وحتى فى النظام الاجتماعى عندما تحل حاملات المشاعل محل حاملات الرغيف فانه على المخيلة الشعرية تقع مهمة البحث عن الضوء .

الغموض الذى يؤخذ على الشعر لا يعود الى طبيعته الخاصة التى من اهدافها

ان تضيء • ان ذلك يعود بالدرجة الاولى الى الليل العميق الكثيف الذى يمشى الشعر فيه وهو يبحث منقبا عن الحقيقة • انه ليل النفس حيث يستحم الكائن البشرى • العبارة الشعرية ترفض ان تتنازل عن مهمة الاضاءة تماما كالعبارة العلمية التى لا تتنازل فى اى حال من الاحوال هى ايضا ، عن هذه المهمة •

لهذا يبدو ان الشاعر بفعل انضمامه الكامل الى مـا هو موجود ، يقيم من اجلنا العلاقة الدائمة بيننا وبين العلاقة الدائمة للوجود • الامثولة التى يقدمها لنا هى امثولة تفاؤل • ان قانونا دائما واحدا منسجما فى الشاعر يحكم عالم الاشياء كله ويسيره •

رسالة الشاعر هى ان يقوم بتادية الدعوة التى وجد الانسان ليؤديهـا • ويكفيه فى النهاية ان يكون ذاك الضمير المبكت الذى يعى زمنه حق الوعى •»

◆ كانت امسية الاتحاد يوم الجمعة 1961/1/6 مكرسة لحديث الدكتور محمد جواد رضا عن القاص الامريكى ارنست همنغوى • افتتح الامسية الدكتور على جواد الطاهر سكرتير الاتحاد ، بكلمة موجزة عن مكانة همنغوى ، ثـم قـدم الدكتور محمد جواد رضا الذى بدأ الحديث عن تاريخ اعجابه بالقاص الامريكى ثم استعرض مؤلفات همنغوى ، وعـرض لثلاث من قصصه ــ والشمس تشرق ايضا ــ لمن تقرع النواقيس ــ الشيخ والبحر ــ وكان حديث الدكتور عرضا شائقا لجوانب تلك القصص الثلاث • ومع ان الدكتور رضا اعتذر عن اعطاء حكم على همنغوى ، الا انه خلص اخيرا الى ان همنغوى كاتب غير ملتزم ، وانه يكره الحرب ، وان قصصه ذات نهايات غير حاسمة •

وبعد ان فتح باب المناقشة ، تحدث الـدكتور شاكر خصباك ، محاولا ان يثبت التزام همنغوى ، بدليل انه يؤمن بالانسان ، ويدافع عنه ، ثـم امتدح اسلوب همنغوى القصصى الذى يمتاز بالعبارة القصيرة • واعقبه بعد ذلك حسين مردان ، فعبر عن وجهة نظره فى انه لم يسمع بحثا ، لا من المحاضر ، ولا من المناقش ، وتحدث عن همنغوى فقال انه كالآخرين الذين يعانون مشكلة (اللامنتمى) • وتحدث بعده صالح جواد فقـارن بين همنغوى وبعض الكتاب ومنهم شولوخوف، وقال ان همنغوى يكره الحرب لكنه لا يخبرنا كيف نتجنبها

ثم تكلم عبد المجيد الراضى ، فقال ان مشكلة همنغوى ، انه كالآخرين الذين يتناولون (الطبيعة الانسانية) مجردة من علاقاتهـا • انهم يصورون الانسان يحاول للمحاولة ويكافح لذات الكفاح • وعـرض اندريه مالـرو مثلا لاولئك الذين يبحثون (الطبيعة الانسانية) ويكتبون عنهـا ، لكنهم قـد يكونون فى ظرف ما اعداء للانسان ، كما هى الحال لدى مالرو ، الوزير الديغولى الآن •

ثم عاد الدكتور رضا ، واوضح وجهة نظره للمناقشين بايجاز •• شاكرا لهم•